

المَسْعُودِيّ وَالْمَقْدِسِيّ وَالْبَيْرُونِيّ

ثَلَاثَةُ نُجُومٍ مُضِيئَةٍ

فِي سَمَاءِ الْفِكْرِ الْبَشَرِيِّ

في تاريخنا الفكري يمثل المؤرخون والجغرافيون فكرة وحدة أمة العروبة والإسلام في الزمان والمكان ، ولا يعترفون بغير هذه الوحدة ، ففي العصر الذي كتب فيه أعلام الجغرافيين من مدرسة المسالكين أي البلدانيين أي الذين وصفوا لنا بلاد الإسلام وطرقها (مسالكها) وهو عصر القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين . كانت بلاد الإسلام في الغاية من التفرق والتمزق السياسي . فالدولة العباسية دخلت في دور الاحتضار الطويل ، وكل قطر من أقطارها استبدت به أسرة من أهل الاستبداد والطغيان ، والبويهيون الذين بسطوا سلطانهم على دولة الخلافة يمثلون الحضيض المخيف الذي انحطت إليه معظم نظم الحكم في بلادنا ، في تلك العصور باستثناء دولة واحدة هي دولة بني أمية في الأندلس ، ولكن الجغرافيين والرحالة لا يعترفون بالتقسيمات السياسية ولا بانحطاط الحكام عن سمت العدل واحترام الحقوق والمحافظة على كرامة الإنسان ، وهي الأساسيات التي ينبغي أن تقوم عليها أمة الإسلام .

لا يعترف أهل الجغرافية وأهل التاريخ بالسياسة وحماقاتهما وأهلها ، ويؤرخون للدولة السابقة عليهم والمعاصرة لهم كما لو كانوا يكتبون عن عصابات من اللصوص ، ويصورون لنا أمة الإسلام واحدة بلا حدود أو تقسيمات ؛ لأن إيمانهم كان ثابتاً لا يتزعزع بالأمة ووحدتها في الزمان والمكان ، رأسياً وأفقياً ؛ فالمؤرخون يربطون الأجيال بعضها ببعض ، والجغرافيون يربطون بين شعوب أمة الإسلام بعضها ببعض .

وتلك هي المعجزة الكبرى لأهل التاريخ والجغرافية عندنا ، وقد تحدثنا فيما سبق عن ابن الأثير ذلك العربي المؤرخ الصحفي الصادق نحو أمته وعقيدته ، وها هنا نتخير من أعلام المؤرخين والجغرافيين ثلاثة ونتحدث عنهم ، لأن سجل المؤرخين والجغرافيين عندنا طويل جداً : سأحدثك عن المسعودي والمقدسي ، ثم أحدثك عن رجل موسوعي

متوقد الذهن كان جغرافياً ومؤرخاً وفلكياً ورياضياً وخادماً صادقاً لأمة الإسلام والبشرية كلها ، هو أبو الريحان البيروني ، وأحب أن أقول لك : إننا ننظر إلى تاريخنا الفكري نظرة الطائر فنحن نحلّق من ارتفاعات شاهقة فلا تبدو لنا إلا القمم ، وذلك لكي نستطيع أن نعطيك صورة هي أشبه بتلك التي يردها علينا القمر الصناعي ، وكما تبدو لنا في الصور ولوحات التلفاز ، وبدون هذا لن نستطيع أن نفرغ من دراستنا تلك ، ثم إننا لا نريد أن نثقل على أنفسنا بزحام أسماء الأعلام ..

فأما المسعودي فهو : أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي نسبة للصحابي الجليل عبد الله بن مسعود . ولد في بغداد في نهاية القرن العاشر الميلادي وتوفي في فسطاط مصر سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٧ م وهو شخصية عجيبة تعد من مفاخر الحضارة العربية بل الإسلامية كلها ، فهذا الرجل عاش عمره كله يقرأ ويدرس ويتعلم ويعلم ، والأرض عنده بساط محدود ، فهو في رحلة دائمة طلباً للعلم ، وهو في شوق دائم إلى المعرفة وهو في قلق لا يهدأ لاستكشاف المجهول ، وهمه الأول هو الاطمئنان على أحوال أمته العربية الإسلامية ، فهو يزرعها بالطول والعرض وهو يستعلم عن كل شيء فيها ويكتب لنا كتباً هي تقارير يرفعها إلى أمته العربية ليطمئنها على أنها بخير ويؤكد لها ألا مكان للجزع من شناعات رجال الحكم والسياسة فكلهم إلى زوال ولا تبقى في النهاية إلا الأمة ، أمة الإسلام يرعاها رب العزة خالق الكون سبحانه .

وقد كتب المسعودي عشرات الكتب ضاع الكثير منها ولم يبق إلا القليل ، وهذا القليل عظيم جداً وجيد جداً .

المسعودي مؤرخ جغرافي وعالم طبيعة ونبات وحيوان ومؤرخ حضارة ، وكتاب « مروج الذهب » الذي سنكتفي هنا بالحديث عنه هو بالفعل مروج ذهن وفكر وعلم ، وهو يتنقل بك في صفحات كتابه من باب لباب ومن ميدان إلى ميدان فهو لا يعرف المنهج ، ولكنه ينشد الحقيقة أبداً .

ومروج الذهب أساساً كتاب تاريخ ، أي أنه يحاول أن يعطينا تاريخاً عالمياً يؤرخ فيه لكل شعوب الدنيا ولكل الأنبياء والديانات . ويحدثنا عن ديانات الوثنية ومذاهبها ، ويقص علينا ما انتهى إليه علمه من أخبار المصريين والبابليين والآشوريين والعبرانيين واليونان والرومان ثم الروم وهم البيزنطيون ، ثم يدخل بعد ذلك في تاريخ الإسلام

ويمضى في الرواية حتى يصل إلى عصر الخليفة المطيع العباسي ، وهو الخليفة العباسي الثالث والعشرون وهو أبو القاسم الفضل المطيع لله ابن المقتدر (٣٢٤ - ٣٦٣ هـ / ٩٤٥ - ٩٧٤ م) وهو معاصر المسعودي ولكنه كما قلت لك لا يلتزم الخط التاريخي بل يستطرد إلى العلوم والثقافات وأحوال العمران ؛ لأنه كان رحالة لا يكل ، فأنت هنا مع كتاب حضارة مرسل في أسلوب قصصي جميل لأن المسعودي قصاص بارع وهو أديب بليغ يسوق ما لديه في نسق سهل ممتع ، واستمع إليه يقول في فاتحة كتاب مروج الذهب : « أما بعد فإننا صنعنا كتابنا في أخبار الزمان ، وقدمنا الكلام فيه في هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها وجبالها وأنهارها وبدائع معادنها ، وأصناف مناهلها ، وأخبار فياضها ، وجزائر البحار والبحيرات الصغار ، وأخبار الأبنية المعظمة والمسكن المشرفة ، وذكر شأن المبدأ وأصل النسل ، وتباين الأوطان ، وما كان نهراً فصار بحراً على مرور الأيام ، وما كان بحراً فصار برأ ، وما كان برأ فصار بحراً على مرور الأيام وكرور الدهور ، وعلّة ذلك وسببه الفلكي والطبيعي » (مروج الذهب ١ / ٩) . فتأمل والله إشارته إلى الأراضى التي كانت برأ فصارت بحراً ، والتي كانت بحراً فصارت أرضاً فتشعر أن الرجل كان ذا علم بما نسميه اليوم بالجيولوجيا ، وأنه كان في الحقيقة أقرب إلى علماء العصر الحديث منه إلى أهل العصور الوسطى .

بل هو يتطرق إلى الكلام في أحوال الأمم والدول وما يعرض لها : « وكيف تدخل الآفات على الملك وتزول الدول وتبيد الشرائع ، والملك والآفات التي تحدث في نفس الملك والدين ، والآفات المعترضة لذلك ، وتحصين الدين والملك وكيف يعالج كل منهما بصاحبه إذا احتل من نفسه أو من عارض يعرض له ، وماهية ذلك العلاج وكيفيته ، وأمارات إقبال الدول وسياسة البلدان والجيوش على طبقاتهم ووجوه الحيل والمكائد في الحروب .. وهو هنا فيلسوف تاريخ ورجل سياسة وحرب ، وهو يختم كلامه في مقدمة المروج بقوله : « ثم ما دفعنا إليه من طول الغربة وبعد الدار وتواتر الأشعار ، طوراً مُشْرِقِينَ وطوراً مُغْرَبِينَ كما قال أبو تمام :

خليفة الخضر ، من يربع على وطني في بلدة ، فظهور العيس أوطاني
بالشام قومي ، وبغداد الهوى وأنا بالبرقتين ، وبالفسطاط إخواني

والخضر المذكور هنا كما يقول الماضون كان نبياً لا يموت ، فهو يطوف الأرض أبداً يعظ الناس ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، فهو مثلاً عبد الله الذى صاحب موسى عليه السلام ، والصوفية عندنا يكترون في ذكر الخضر وأخباره مع الصالحين ، فكان المسعودى هنا يشبه نفسه بالخضر في رحلاته وهو كما ترى عربى خالص : فهو شامى عراقى بغدادى مصرى مغربى ، لأن البرقتين المذكورتين في البيتين يراد بهما بلاد المغرب ، ومن هنا فإن المسعودى رمز على المفكر العربى الذى يقضى عمره في طلب العلم وخدمة أمة العرب وتوكيد وحدتها بالعلم ، وأمة الإسلام في ذلك العصر كانت قلب الدنيا وقائدة الحضارة على وجه هذا الكوكب ، بل إنه يبدو لنا في صفحات كتابيه الكبيرين الباقيين « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » كأنه حارس الدنيا وراعى الحضارة فهو يتحدث عن مذاهب الوثنية والديانات غير الإسلامية حديثاً معقولاً منصفاً ، وهو يجتهد في فهمها ويمتدح ما يجده في أهلها من الفضائل ، ثم إنه يمتدح الرهبان والكهان والقسيسين ويتكلم عن مذاهب النصرانية باعتدال وفهم ويرجو لهم الهداية ، وهو هنا أقرب إلى روح الإسلام من المتعصبين المتشددين الذين ينسون أن الله أمر بأن ندعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وهو في كلامه كله أستاذ عظيم يتحدث عن علم وسيادة وأستاذية وإنسانية ، وهو دون شك من معلمى الإنسانية وهو من أعلام الإنسانيين أى من يعرفون في المصطلح الغربى باسم Human Ists .

* * *

ومن المسعودى الجليل ننتقل إلى المقدسى العجيب . والمقدسى - ولك أن تقرأ بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال - أو بضم الميم وتشديد الدال وفتحها . فالاثنتان هنا سواء ؛ لأن الرجل فلسطينى من أبناء القدس وهو علامة طلعة جغرافى رحالة مغامر ذو شخصية فاتنة وكتابه الباقي بين أيدينا « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » .. يقف في قمة سلسلة من المؤلفات الجغرافية العربية تعرف في مجموعها بأطلس الإسلام ؛ لأنها مؤلفات قامت على خرائط ، أى أن أصحابها من الجغرافيين كانوا يبدأون برسم خريطة للأرض أو لعالم الإسلام ثم يضعون الخريطة ويبينون ما فيها في كتاب ، وهذه السلسلة البديعة بدأها أبو زيد أحمد بن سهل البلخى .

ثم تلاه أبو إسحاق الفارسي الاصطخرى ثم أبو القاسم بن حوقل النصيبى ثم توجها المقدسى هذا الذى قال فيه المستشرق الويس شبرنجر : إنه .. « أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة » ، وقال فيه المستشرق كرامرز « إنه أكثر الجغرافيين العرب أصالة » ، والحق أن المقدسى جغرافى أصيل حقاً ولكنه يقف دون الشريف الإدريسى الذى سنتحدث عنه فيما بعد .

والفضيلة الكبرى للمقدسى واسمه الكامل شمس الدين أبو عبد الله محمد الشامى المقدسى البناء (٣٣٥ هـ - - حوالى ٣٩٠ / ٩٤٦ - ١٠٠٠ م) ، وقد قدم إلينا المقدسى أدق وأشمل وصف لبلاد الإسلام التى يسميها مملكة الإسلام ، والوصف يقوم على خرائط صغيرة ما زال بعضها بين أيدينا .

وهو يبدأ وصفه ببلاد العرب .. لأن فيها مكة قاعدة الإسلام ، ثم يصف الجناح الشرقى لعالم الإسلام وصفاً دقيقاً يقوم على معاينة ومشاهدة فقد زار الرجل بلاد الإسلام كلها بادئاً من غربى الصين ، ولكنه لم يزر المغرب أو الأندلس فى الغالب ، وجغرافيته طبيعية بشرية متوازنة فهو جغرافى بطبيعته يعرف أصول عمله ، فهو يبدأ فى كلامه عن كل إقليم بجغرافيته الطبيعية ثم يتبعها بالجغرافية البشرية وينتهى بالكلام على النظام الإدارى ثم الناس وأحوالهم وملابسهم ومآكلهم ومشاربهم ويضمن كلامه ذلك النوع من الطرائف وحديث العجائب الذى كان الناس يولعون به فى العصور الماضية ، وبعض حكايات تتضمن حقائق علمية على أكبر جانب من الأهمية .

ومدخل كتابه أحسن التقاسيم أصبح من زمن طويل قطعة من الأدب الجغرافى العالمى ، فقد ترجمها إلى الهولندية دى فويه (سنة ١٨٧٥) وإلى الإنجليزية كريمر (سنة ١٨٧٧) وإلى الإيطالية نالينو (١٨٩٥) وإلى الفرنسية جان سوفاجيه (١٩٤٦) ، وإليك طرفاً منها لتعرف أسلوب هذا الرجل العجيب ..

اعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء صنعوا هذا الباب (يريد الجغرافية) وإن كانت مختلة ، غير أن أكثرها بل كلها سماع لهم ونحن : فلم يبق إقليم إلا قد دخلناه وأقل سبب إلا قد عرفناه وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر فى الغيب (يريد : المجهول) فاننظم كتابنا هذا بثلاثة أقسام : أحدها ما عايناه ، والثانى

ما سمعناه من الثقات ، والثالث ما وجدناه من الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره ، وما بقيت خزانة (مكتبة) ملك إلا قد لزمتهما ، ولا تصانيف فرقة إلا قد قد تصفحتها ، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها ، ولا أهل زهد إلا وقد قد خالطتهم ، ولا مذكور بلد إلا قد شهرتهم (يريد الوعاظ وخطباء المساجد ودعاة الإسلام) حتى استقام لى ما ابتغيته في هذا الباب ، ولقد سميت بستة وثلاثين اسما دعيت وخطبت بها مثل مقدسى وفلسطينى ومصرى ومغربى وخرسانى وسلمى (عربى من بنى سليم بن منصور) ومقرئ وفقه وصوفى وولى وعابد وزاهد وسياح (أى صوفى واعظ يجوب الأرض على باب الله) ووراق ومجلد وتاجر ومذكر وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وعراقى وبغدادى وشامى وحنيفى ومؤدب وكير (أى عامل بالأجر) ومتفقه ومتعلم وفرائضى (أى متخصص فى قسمة الموارث) وأستاذ (أى حرفى صاحب صنعة يدوية) ودانشومند (أى شيخ علامة كبير) .

وشيوخ ونشاسته (كواء ملايس ؟) وراكب (ملامح ؟) ورسول ، وذلك لاختلاف البلدان التى حللتها ، وكثرة المواضيع التى دخلتها ، ثم إنه لم يبق شىء مما لحق المسافرين إلا قد أخذت منه نصيباً إلا الكدية (التسول) وركوب الكبيرة ، فقد تفقحت وتأديت وتزهدت وتعبدت وفقهت وأديت وخطبت على المنابر وأذنت على المنائر ..

والمقدسى يقدم لنا نفسه وكتابه تقديمًا ساذجًا فيه غرور بنفسه وعمله ولكنه يخف عن قلوبنا ؛ لأن الرجل نفسه فيه صدق وأصالة وهمة وعزم ، واسمع إليه يقول فى فاتحة كتابه : « اعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صدقوا فى هذا الباب وإن كانت مختلة ، غير أن أكثرها بل كلها سماع له ونحن فلم يبق إقليم إلا قد دخلناه ، ولا سبب إلا قد عرفناه وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر فى الغيب فانتظم كتابنا هذا بثلاثة أقسام ، أحدها ما عايناه ، والثانى ما سمعناه من الثقات ، والثالث ما وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا الباب وفى غيره ، وأممت فى المساجد وذكررت فى الجوامع واختلفت إلى المدارس ودعوت فى المحافل ، وتكلمت فى المجالس ، وأكلت مع الصوفية الهرايس (وهى العصائد وكل ما يشبه البودينج) ومع الخانقائين الثرائد (جمع ثريد) ومع النواتى الملاحين العصائد ، وطردت فى الليالى من المساجد ، وسحت فى البرارى وتهدت فى الصحارى ، وصدقت فى الورع زمانًا ، وأكلت الحرام عياناً وصحبت عباد جبل

لبنان ، وخالطت حيناً السلطان ، وملكت العبيد وحملت على رأسى بالزنبيل ، وأشرفت مراراً على الغرق وقطع على قوافلنا الطرقي ، وخدمت القضاة والكبراء ، وخاطبت السلاطين والوزراء ، وصاحبت في الطرق الفساق (كذا في الأصل المطبوع ويكون معناه في جزء الحالة المسافرين ليلاً هرباً من أعين الشرطة ، وقد تكون صحة قراءة اللفظ الفساق) ، وبعث البضائع في الأسواق ، وسجنت في الحبوس ، وأخذت على أنى جاسوس ، وركبت الكنايس (المحامل التى توضع على ظهور الجمال) والخيول وعاينت حرب الروم في الشوانى (السفن الحربية الكبيرة) وضرب النواقيس في الليالى .

وجلدت المصاحف بالكبرى (الأجر) ومشيت في السمائم (جمع السموم وهى الرياح المعروفة والثلوج) ونزلت في عرصة (دار) الملوك بين الأجلة وسكنت بين الجهال في محلة الحاكة (دكاكين الخياطين) وكم نلت العز والرفعة ودبر في قتلى غير مرة وحججت وجاورت وغزوت وربطت وشربت بمكة من السقاية السويق (دقيق يذاب في الماء) وأكلت الخبز والجليان بالسبق (اسم مكان) ومن ضيافة إبراهيم الخليل (أى من الطعام الذى كان المحسنون يقدمونه لزوار مسجد الخليل) وجميز عسقلان السبيل (أى الذى يقدم لأبناء السبيل في عسقلان) وكسبت خلع الملوك وأمروا لى بالصلوات وعريت وافتقرت مرات وكاتبنى السادات ووبخنى الأشراف وعرضت على الأوقاف وخضعت للأخلاف (أى أن اسمه وضع ضمن المستحقين لخيرات الأوقاف وبحثوا عنه وعن حاله) ورميت بالبدع واتهمت بالطمع وأقامنى الأمراء والقضاة أميناً ودخلت في الوصايا وجعلت وكيلاً (أى ما يشبه المحامى في المحاكم) وامتحننت الطرارين ورأيت دول العيارين (اللصوص) واتبعنى الأرنلون وعاندنى الحاسدون وسعى بى إلى السلاطين ودخلت حمامات طبرية والقلاع الفارسية ورأيت يوم الفوارة وعيد بربراة وبئر بضاعة وقصر يعقوب وضياعه والمهرجان والسنة (عيد رأس السنة عند النصرارى) والنيروز بعدن وعجبه ، وعيد المارسرجه (في مصر) ومثل هذا القدر ليعلم الناظر في كتابنا أننا لن نصنفه جزافاً ولا رتبناه مجازاً ..

فهذا إذن رجل عجيب قضى عمره كله يطوف بعالم الإسلام وخارجه ويلقى بنفسه في المهالك طلباً للعلم والمعرفة لكى يقدم لأمة العربية بعد ذلك كتاباً هو في الحقيقة تقرير عن الدنيا ، تحمل هذا الرجل المشاق وخاض الأخطار ليكتبه خدمة لأمة فأى إخلاص هذا للعلم والأمة ؟ مثل هذا الرجل دون شك جوهرة تزين تاريخ حضارة البشر .

ومن المسعودى العلامة المتبحر صاحب الذهن القلق المشوق أبدأ إلى المعرفة والمقدسى المغامر الباحث عن العلم والمعرفة الذى قضى حياته فى رحلة واحدة متصلة غايتها طلب العلم وربط ماضى أمة الإسلام بحاضرها ، وشرقها بغربها ننتقل إلى شخصية أخرى فاتتة من شخوص التاريخ الفكرى العربى المجيد ، إنه أبو الريحان البيرونى الذى لا نعرف اسمه الكامل ، ولكنه علم يملأ الدنيا بعلمه ويبهرها بعقليته العلمية التى تضعه بحق فى نفس مستوى أعظم أعلام النهضة الأوروبية من أمثال ميكل أنجلو وجاليليو ، ولو كانت نظم الدول الإسلامية التى عاش فى ظلها قائمة على روح الإسلام حقاً لكان هذا الرجل دون شك قد قاد الإنسانية كلها فى معارج الحضارة خطوات واسعة .

وأبو الريحان البيرونى ليس عربى الجنس ولكنه عربى اللسان مسلم القلب ولد فى ضاحية من ضواحي بلدة خوارزم ، وخوارزم بين بحر قزوين الذى يسميه العرب بحر الخزر ونهر سرداريا أو سيحون ، وبيرون أو برون بدون ياء ليس اسم مكان فى الغالب . بل معناه الضاحية أو الريف ، فهو على هذا ريفى ولد ونشأ فى إقليم جبل يميز بشتائه البارد الطويل .

وقد ولد فى ذى الحجة ٣٦٢ هـ ٤ سبتمبر ٩٧٣ م ، أى فى أواخر أيام المسعودى والمقدسى ، وفى أواخر أيامه عرف أبا على بن سينا وهو مفخرة من مفاخر الحضارة الإنسانية ، وهكذا ترى أن مسيرة الفكر العربى الإسلامى كانت فى الحقيقة مسيرة متتابعة ومشعل الحضارة ينتقل من جيل إلى جيل ، وقد توفى أبو الريحان فى غزنة فى أفغانستان الحالية فى الثالث من رجب سنة ٤٤٤ هـ / ١٣ ديسمبر ١٠٤٨ م ، ومن سن الرابعة والعشرين إلى وفاته فى الخامسة والسبعين من عمره عاش هذا الرجل للعلم ، وللعلم وحده وساق نفسه فى طلب العلم سَوْقاً عنيفاً ، وخلف للإنسانية وراءه علماً غزيراً رفيعاً جعل الروس المعاصرين يجتهدون فى إلحاقه بجنسهم واعتبروه مفخرة من مفاخرهم كما يفعل الأسباب بعلم آخر من أعلام الإسلام عاش فى نفس العصر تقريباً وهو أبو محمد على بن أحمد بن حزم الذى لم نؤلف نحن عنه إلا كتباً صغاراً فى حين أن عالماً أسبانياً جليلاً هو ميغيل أسين بلاتىوس ألف عنه كتاباً من خمس مجلدات ودخل بفضلها مجمع اللغة الإسبانية ، وفى تلك الأكاديمية الإسبانية

العريقة ، أعطوا ابن حزم الجنسية الإسبانية وسموه ابن حزم الكوردوبيس أى القرطبي .

وباكستان تطلب لنفسها شرف نسبة أبى الريحان إليها ، أما هو فقد كان يحس أنه فارسى ولكنه عربى اللسان والقلب ، وبالعربية كتب كل كتبه وكان يقول : وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أفكار العالم ، فزادته وحلّت إلى الأفئدة وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة وإن كانت كل أمة تستحل لغتها التى ألفتها واعتادتها واستعملتها في مآربها مع أشكالها ، وأقيس هذا بنفسى وهى مطبوعة على لغة لو خلد بها على لاستغرب مثل البعير الميزاب والزرافة في العراب (يريد اللغة الفارسية) والعراب هى الخيل ، فأنا في كل واحدة دخيل ولها متكلف أى أن الفارسية والعربية لم تكونا لغته ، فإن لسانه تركى والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية .

وقد عاش أبو الريحان في ظل دولة تعتبر من أمجد دول الإسلام وهى الدولة الغزنوية وهى تركية قامت في أفغانستان الحالية على يد فارس محارب يسمى البتكين ، ولكنها أنجبت سلاطين عظماء مثل محمد جلال الدولة ، وناصر الدولة مسعود ، وشهاب الدولة مودود ، وفي صراع القوة والسياسة في شرقى إيران اندفع الغزنويون إلى الهند ففتحوا شمالها وبدأوا بذلك قصة مجد الإسلام في شبه القارة الهندية ، ومع مسعود ثم مودود عاش البيرونى وكتب وألف ولم يكن من رجال الدولة أو من أهل ثقفتها ، ولكنه كان زاهداً في السلطان أو الجاه أو المال فعاش بالعلم وللعلم وأضاف بذلك إلى سجل الفكر العربى صفحات كلها نور ..

والبيرونى رياضى في أساسه فهو رجل علوم ورياضيات وهو يكتب ويحسب ويرسم أشكالاً هندسية ويضبط قواعد رياضية بدقة لا نجدها إلا عند كبار الرياضيين في العصر الحديث وكتابه الأول الكبير اسمه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » كتاب رياضة وفلك وحساب للتواريخ والأزمان وأنت ترى وأنت تقرؤه أن الرجل يعرف العربية والفارسية والتركية والهندية والعبرانية والكثير من اليونانية واللاتينية فهو عقل عالمى يريد أن يضع قاعدة رياضية للتاريخ ، وقد نشر الكتاب علامة ألمانى يسمى إدوارد سخاو وقال في مقدمته : إن البيرونى فخر للإنسانية كلها فهو رجل حضارة يحترم العلم وأهله ويطلبه في كل لغة ، وكان السلطان مسعود الغزنوى لا يحب أباً

الريحان ؛ لأن الرجل رفض أن يكون نديماً أو رجلاً من رجال الحاشية ، ولكن عندما كتب البيروني كتابه الخالد « القانون المسعودي » الذى صحح فيه كل حسابات الفلك والنجوم إلى أيامه اضطر السلطان إلى أن يحنى هامته لرجل العلم العظيم .

وكان البيرونى قد ذهب إلى الهند فى صحبة السلطان محمود الغزنوى ، وخلال سنوات إقامته فى الهند درس الهندية وتاريخ الهند وعقائد أهلها . وعلومهم وألف أعظم كتاب ألف فى العصور الوسطى عن بلد واحد وهو تحقيق للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ، وهو كتاب يحير الألباب بسعة ما فيه من العلم والعمق وبعد النظر والصبر على الدرس حتى أنك لا تسأل : ماذا كان البيرونى يعرف ؟ بل تسأل : ماذا كان لا يعرف ؟ لأن عقل الرجل معجز حقاً ، فكتاب الهند كتاب اجتماع وجغرافية وعلم أجناس ولغة وأديان ورياضة وحساب وموسيقى وأدب وإن كانت الجغرافية أغلب عليه ، وما رأيك فى رجل يأخذ حفنة من تراب الأرض قرب مكة ويدرسها ويفحصها ثم يقول : هذه الأرض كانت بحراً فى سالف الأزمان ! وهذا صحيح فإن فى أرض الحجاز أصدافاً بحرية إلى يومنا هذا ، وهذا الرجل نفسه يقول : إن فصول السنة جنوب خط الاستواء مغايرة لفصولها شماله ، فعندما نكون نحن فى الصيف يكون جنوب خط الاستواء شتاء ، وهو يتحدث عن دوران الأرض حول نفسها مرة فى اليوم والليلة حديث أستاذ معاصر ويقف طويلاً متردداً أمام ما يقال من أن الأرض مركز للكون ويرصد النجوم فى مرصد المراغة ويتساءل : هذه الشمس كلها تدور حول الأرض ؟ وكان الناس فى عصره يقولون : إن بحار العالم ذات مستويات مختلفة ، أما البيرونى فقد قال جازماً : إن بحار الدنيا كلها مستطرفة ومنسوب الماء فيها واحد ، وهو يقف عند وادى نهر السند ويقول : إن ذلك الوادى فى يوم من الأيام كان قاعاً بحرياً ثم غطته الرواسب الفيضية بالتدريج ، وهذه أول مرة يتحدث إنسان عن تكون الدلتاوات الفيضية .

* * *

حقاً إن تاريخ الفكر العربى سجل مفاخر زاخرة ، وأمة العرب والإسلام لم تكف أبداً عن اطلاع العباقررة ولولا ضيق المقام لقلنا أضعاف ما قلنا ، وعندما أحدثك فى الفصول القادمة عن رجال مثل أبى العلاء والشريف الإدريسى وابن حزم وابن خلدون سترتفع هامتك وتشعر أنك وارث أجمل حضارات البشر جميعاً .

* * *

الإدريسيّ وابنُ خلدونَ علّمانِ في تاريخِ حضارةِ البشرِ

المسافة بين الشريف الإدريسي وعبد الرحمن بن خلدون طويلة جدًا في حكم الزمان والمكان جميعًا ، فالأول منهما جغرافي من أهل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، والثاني مؤرخ تاريخي متفلسف من أهل القرنين السابع والثامن الهجريين / الرابع والخامس عشر الميلاديين . الأول شريف إدريسي وقور ساكن هاديء الطبع يجوب عالم الإسلام للدرس والمشاهدة وطلب المعرفة دون تطلع إلى وظيفة أو منصب ، والثاني مغامر طموح ، ولكن كليهما عاش للعلم وتعب في طلبه وعانى كذلك الأذى من الناس والحكام وصروف الأيام ، ولكنهما يلتقيان عند شيء واحد ، وهو أن كلاً منهما ذروة العلم العربي في ميدانه ، فالإدريسي قمة الجغرافية ، وابن خلدون قمة التاريخ ، وكل منهما فعلاً ذروة من نرى العلم والفكر الإنسانيين .

فأنت لا تستطيع أن تحكى قصة حضارة البشر دون الإدريسي أو ابن خلدون ، وأغرب ما يجمع أحدهما إلى الآخر رغم الاختلاف في كل شيء تقريباً هو أنهما معاً عرفا من حقوقنا الشيء الكثير ، وكان أهل الغرب هم الذين عرفوا مكانتهما بأكثر مما عرفنا ، والفضل الأول في اكتشاف عبقريتهما وفضلهما على العالم يرجع إلى الغربيين ، فهم الذين توفروا فعلاً على دراستهما وبحث ما كتبنا . دراسة جادة متعمقة وانتهوا إلى أنهما مفخرتان من مفاخر الإنسانية ، ومن أفواههما أخذنا نحن ذلك ومضينا نزهى بالإدريسي تارة وبابن خلدون تارة أخرى ، ثم نصيح : ويل للمستشرقين ! ما أصابنا منهم إلا كل بلاء ، وآخر ما لدينا من أخبار الرجلين يأتينا من الغرب أيضًا ، فإننا - نحن - لم ننهض بنشر جغرافية الإدريسي نشرًا علميًا دقيقًا محققًا ، فنهضوا هم بذلك ، وقام نفر من العلماء الإيطاليين والأوروبيين والغرب فنشروا جغرافية الإدريسي على أكمل صورة ، وقام اثنان من علماء الغرب بترجمة مقدمة ابن خلدون إلى الإنجليزية والفرنسية والترجمة الفرنسية في ذاتها تحفة أدبية ، لم يرض لها المترجم عنواناً هو أقل من أجلّ أسامي الكتب عند الغربيين ، فليس هناك غربي لا يفخر بكتاب القس الفرنسي الأب جاك بنيجنى بوسويه (١٦٢٧ - ١٧٠٤) المسمى : مقال في التاريخ العالمي ، فأخذ

المترجم الفرنسى وهو فنسان مونتائى نفس العنوان وجعله اسماً للترجمة الفرنسية
التي صاغها في أجمل أسلوب لمقدمة ابن خلدون Discours. Sur L'kistaira .

وختم هذا العمل الصالح برأس الصالحات ، فدخل الإسلام عن إيمان واقتناع
وأصبح اسمه فنسان منصور مونتائى Vincent Mansour Montaigne. أجل قاده إلى
الإسلام إعجابه بابن خلدون ، ولكي يترجم المقدمة اضطر إلى أن يخوض في علوم
الإسلام خووضاً ، وخرج منها مؤمناً طاهراً كما ولدته أمه بإذن الله .

والعصور التي عاش فيها الرجلان يشيب لها قرن الزمان ، فأما الشريف
الإدريسى فلم يظفر بالأمان إلا في ظل ملك نورمانى مسيحي ، قضى في بلاطه في بلرم
بصقلية خمس عشرة سنة كتب فيها بالاشتراك مع الملك النورمانى أدق وصف للأرض
وإلى زمانه وسماه .. « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، وأما ابن خلدون فقد تقادفته
عواصف الزمن من أقاصى الغرب إلى أقاصى الشرق ، وطارده الموت مرة بعد أخرى فلم
يجد الراحة إلا في سنواته الأخيرة في مصر ، تولى فيها قضاء المالكية مرة بعد أخرى
وختم حياته مخلقاً للبشرية مقدمته الجليلة وتاريخه العظيم .

وأبدأ فأجمل لك حياة الرجلين حتى نفرغ من المعلومات الضرورية عن كل منهما
ويتسع أمامنا المجال للكلام عما خلفا للإنسانية من تراث جليل .

فالإدريسى شريف من بيت الحسن بن علي بن أبى طالب فشب أشرف أرومة وهى
أرومة الحسنين من آل المصطفى ﷺ ، واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن محمد بن
عبد الله بن إدريس ، وإدريس هذا ليس إدريس الكبير الذى أنشأ دولة الأدارسة في
المغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، ولكنه إدريس الحمودى وهم أسرة
الحموديين من الأشراف الحسنيين ، شاركت مشاركة غير كريمة أو محمودة في الفتنة
الأندلسية الكبرى خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، فقد طمع رجالها في الخلافة بعد
زوال خلافة الأمويين في الأندلس ولم يكونوا أهلاً لهذه المسئولية أو المطلب ، فطحتهم
أحداث الفتنة طحناً ثم لفظتهم لفظاً واستقرت بقاياهم في سبتة ، ومن نسل إدريس
العالى آخرهم انحدر شريفنا الإدريسى .

فخرج إلى الدنيا في غمار الناس ومضى يطلب العلم وكان مولده في مدينة سبتة
سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م ، ولا ندرى من تفاصيل حياته شيئاً ؛ لأنه فيما يظهر قد

استخفى عن الناس خوفاً على حياته ، فقد كان كل أصحاب السلطان في عالمنا العربي يخافون الأشراف بقدر ما كانت جماهير الناس تحبهم .

وإلى المشرق ذهب الإدريسي لأداء الفريضة وطلب العلم وهو لم يتخطَ العشرين من عمره بكثير ، ولا ندرى على الحقيقة ماذا درس ، ولكننا لا بد أن نفترض أنه تعلم في فاس من بلاد المغرب ثم على مراحل طريق الحج ما لا بد منه من أساسيات الدراسة في تلك العصور : القرآن الكريم والحديث الشريف واللغة وما تيسر من علوم الدين والفقه ، ولكن ميله الحقيقي كان إلى الأعشاب ، وهو النباتات الطبية ، فقد اهتم بها ودرسها وألمَّ بخصائصها الطبية العلاجية ، ويبدو أنه مر خلال هذه الرحلة - بعد الحجاز - بأسيا الصغرى ، فإنه يذكر في جغرافيته أنه كان هناك سنة ٥١٠ / ١١١٦ وهو تاريخ غير معقول ؛ لأن سنة كانت إذ ذاك سبع عشرة سنة هجرية ومر كذلك بشمال مصر ، فإن وصف جغرافيته يدل على أنه عرف الفسطاط والقاهرة ، ورحل بالنيل شمالاً في فرع رشيد ، ثم إلى الإسكندرية ، ومنها إلى المغرب عائداً ونزل في طريقه بصقلية .

وهنا يقع الحادث الحاسم في تاريخه ، فقد كانت صقلية قد خرجت عن أيدي المسلمين ، ولكن ملكها النورمانى روجر الثانى الذى يسميه المسلمون رجار كان رجل علم ودراسة ، وكان شديد الإعجاب بعلم الإسلام وكان من بين رجاله رئيس مسلم إدريسي حسنئى يسمى القاسم بن حمود ، وبهذا الرجل التقى الشريف الإدريسي فوجد الرجل من علمه بالأعشاب ما جعله يفكر في تقديمه إلى رجار ، وعندما التقى الملك النورمانى بالعلامة الشاب المسلم وجد فيه الرجل الذى يطلب ، فقد كان رجار معنياً بالطب والأعشاب فأعجبه الإدريسي وطالت مجالسه معه ، وفي أثناء المجالسة تنبه رجار إلى موهبة الجغرافى الكامنة في نفس الإدريسي وراعه حديثه عن الأرض وعلمه بها ، فدعاه إلى الإقامة والعمل معه في صقلية وتوطدت الصلة بين الرجلين حتى قال الصفدي في الوافى بالوفيات : إنهما كانا يجلسان معاً على الوسائد ويقضيان الساعات في حديث العلم ، وعرض رجار على الإدريسي أن يترك هذا التجوال ويستقر معه في صقلية وقال عبارة لا بد أن تستوقف نظرنا : « أنت من بيت الخلافة ، ومتى كنت بين ملوك المسلمين عملوا على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنت على نفسك » ، وهى عبارة جارحة لكرامة بلادنا وماسة بشرف نظم الحكم عندنا في العصور الماضية ، فهذا الملك النورمانى الفرنجى يعرف أن ملوكنا الماضين كان بعضهم أعداء بعض ومتى ظفر

الواحد منهم بملك مثله قتله حتى أبناء الأشراف العلويين كانوا مهديين بالموت أيضاً ، لأن قلوب الناس تهوى إليهم وكل منهم كان من الممكن أن يكون أميراً للناس حيثما كان ، ولهذا فقد كان أصحاب السلطان يتصيدونهم دون رحمة .

وأدرك الشريف الإدريسي أن ما قاله رجار حق ، فقرر أن يعود مسرعاً إلى المغرب ليصفي أعماله كما نقول ، ثم يعود بعد ذلك إلى صقلية ليعمل مع هذا الملك النصراني وهكذا كان : عاد الإدريسي إلى صقلية وبدأ عمله مع الملك رجار سنة ٥٣٣ / ٩٤٤ وفي سنة ٥٤٨ / ٩٥٩ كان قد فرغ من عمله ، وقام بما يشبه المعجزة ، فقد بدأ فصنع كرة من الفضة تشبه صورة الأرض كما تصورها ثم رسم عليها خريطة العالم وقد وصف لنا الإدريسي هنا عمله وما قام به في مقدمة كتابه ، وأنا أتيك به بنصه لتعلم حجم العمل العظيم الذي قام به عالمنا العربي الجليل خلال خمس عشرة سنة ، ولنلاحظ هنا أن الإدريسي يتحدث في مقدمته باسم الملك رجار تأدباً منه وكرم أخلاق حتى يحسب قارئه أن الذي صنع هذا كله هو رجار لا الإدريسي « .. فأمر عند ذلك أن تفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ، ضخمة الجسم ، في وزن ٤٠٠ رطل بالرومي في كل رطل منها ١١٢ درهماً .. فلما كملت أمر الفعلة (العمال الفنيين) بأن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيغها (سواحلها) وريفها وخلصانها وبحارها ومجارى مياهها ومواقع أنهارها وعامرها (بلادها المسكونة) وغامرها (غير المسكونة) ، وما بين كل بلد منها وبين غيره من الطرقات المطروقة ، والأميال المحدودة ، والمسافات المشهودة ، والمراسي المعروفة على نص ما يخرج إليهم على لوح الترسيم (لوحة الرسم) ، ولا يغادروا منها شيئاً ، ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم فيه ، وأن يؤلفوا كتاباً مطابقاً لما في أشكالها وصورها غير أنه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد والأرضين في خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها ومسافاتها ومزروعاتها وغلاتها وأجناس نباتها وخواصها ، والاستعمالات التي تستعمل بها والصناعات التي تنفق بها والتجارات التي تجلب إليها وتحمل منها ، والعجائب التي تذكر عنها وتنسب إليها ، وحيث هي من الأقاليم السبعة مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزيّهم وملابسهم ولغاتهم ، وأن يسمى هذا الكتاب بكتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وكان ذلك في العشر الأوائل من يناير الموافق لشهر شوال الكائن في سنة ٥٤٨ ، فامتثل فيه الأمر وارتسم الرسم » .

وذلك هو العمل الخارق - بمقياس تلك العصور - الذي قام به عالمنا الشريف الإدريسي ، وأجمل ما فيه أنه أتمه كما قال ، فأما الكرة الأرضية الفضية فقد ضاعت ونستطيع أن نحیی هیئتها وننصبها فی ساحة جامعة من أكبر جامعاتنا ، وأما الكتاب - نزهة المشتاق - فها هو ذا اليوم بین أیدینا : وهی عجبیة إذا قیست بمقیاس العصر الذی كتبت فیہ ، فهی لم تكن أقل من صعود القوم إلى الفضاء أو نزولهم على سطح القمر ! فهذا عالم عربی منفرد یعمل آمناً فی جزيرة بعيدة وهو یقدم لنا بالفعل جغرافیة طبیعیة وبشریة مفصلة للأرض وما علیها من بحر الظلمات (المحيط الأطلسی) وجزائر الخالدات (الكناریاس) إلى شرقی آسیا فی بحار الصين والیابان .

والآن فقد بدأ الإدريسي برسم ما يمكن أن نسميه (كروكى) لخريطة الأرض رسمها على لوحة طويلة عريضة تسع صورة الأرض وما عليها ، ثم قام بعملية حسابية رياضية معقدة ، لكي يستطيع نقل خريطة الأرض هذه على كرة الفضة ، وعلى الكرة وضع المواقع ورسم القارات والبحار والأنهار بغاية الدقة ، وبعد أن أتم هذا العمل العجيب شرع في القسم الثالث من مهمته وهو تحويل هذه الخريطة الكروية إلى خريطة مسطحة ، وهذه عملية غاية في الصعوبة تحتاج إلى تفكير طويل وحساب كبير قام بمثلها عالم هولندي من رجال النهضة فبلغ بها الخلود ، وذلك هو جيراردوس ميركاتور (١٥١٢ - ١٥٩٤) الهولندي الذي ابتكر ما يسمى بالمساقط ورسم الخرائط على لوحات وما زلنا نحن إلى الآن نقول : « خريطة على طريقة ميركاتور » فهذا العمل الجليل صنعه الإدريسي في صمت وهدوء .

وقام الإدريسي بعد ذلك ففقس هذه الخريطة المسطحة إلى سبعة أقسام مستعرضة فوق خط الاستواء وقسمين جنوبيه ، وتلك هي الأقاليم السبعة المشهورة في النصف الشمالي من كرة الأرض وأصلها عند بطليموس (وهو جغرافي يوناني مصري فقد ولد في أسيوط وعاش وعمل في الإسكندرية) ثم قسم هذه الخريطة إلى عشرة أقسام طولية بخطوط رأسية متوازية هي خطوط الطول ، وبذلك حصل على سبعين قسماً مربعاً ، فأخذ كل قسم ورسمه رسماً مفصلاً مكبراً يصفه بكل ما فيه من معالم الجغرافية الطبيعية والبشرية ويدون الوصف في ذلك الكتاب العظيم المسمى بنزهة المشتاق ، وهو يأخذ الأقاليم إقليمياً إقليمياً وفي كل إقليم يصف كل واحد من أجزائه على حدة .

ما الذى جعل الإدريسى يقوم بهذا العمل ؟ الشعور بالسيادة ؛ لأن العلم سيادة ، والشعور بأنه عربى ، والعرب فى أيامه كانوا فكراً وعلمياً فى طليعة الأمم ووصفه إليه كذلك ما سبق أن أشرنا إليه من شعور علماء العرب بأنهم مسئولون عن وطنهم العربى ، فهم يصفونه أفقياً فى المكان فيكونون جغرافيين ، ويصفونه فى الزمان رأسياً فيكونون مؤرخين ، فإذا كانت هنا قمة للعلم الجغرافى فى العصور الوسطى فقد تسنمها الإدريسى هذا كما سيتسنم ابن خلدون ذروة العلم التاريخى .

وقبل أن أعاد الشريف الإدريسى أتيك بالجانب المحزن من حياته ، وحياة المخلصين من أهل الفكر والعلم عندنا كلها أحزان . هذا الرجل يختفى عن أنظارنا فى ليل التاريخ فلا نعرف إلا أنه توفى سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م ، بل لا ندرى أين غاله الموت ؟ فى ثورة على المسلمين فى صقلية ؟ فى مفازة من مفازات بلادنا ؟ لا أحد يدري ! ولكن الذى ينبغى أن ندرية جميعاً هو أن شجرة الفكر العربى تضم على واحد من أزهر غصونها هذا العلم العظيم الذى يعتبر - بحق - من بناء حياة البشر : الشريف الإدريسى !

* * *

ومن قمة الجغرافية ننتقل إلى قمة التاريخ من أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ننتقل إلى أبى زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ / ١٣٣٢ - ١٤٠٥) أصله البعيد حضرمى من قبيلة كندة أيام كانت تعيش فى اليمن قبل هجرتها إلى مشارف الشام ، ولكنه ولد فى تونس وتوفى فى القاهرة بعد أسفار ومغامرات ومخاطر وأهوال . إنه يشارك معظم أهل اليمن فى ذلك القلق الذى لا يكاد يخلو منه عظيم من عظمائهم ، لقد قال رسول الله ﷺ « إن العلم يمان » ، وينبغى أن نضيف إلى ذلك : والقلق يمان ، وهذا القلق اليمنى يتصور فى شكل مفزع فى حياة علامة يمنى آخر عبقرى دون شك هو الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى صاحب الوصف المبدع لجزيرة العرب ويتصور فى شكل حزين فى حياة ابن خلدون ، ويتصور أخيراً فى هيئة مصير مجهول حافل بالمخاطر يميز تاريخ اليمن فى عصورها الإسلامية جميعاً ، وربما كان ذلك راجعاً إلى ما نعرفه من تميز أهل اليمن بذكاء بعيد وطموح أبعد ، فما عرفت فى

حياتي شعباً عربياً أبعد ذكاء في جملته ولا أقدر على مغالبة الأيام أو أشد تعذيباً لنفسه من اليمينيين .

آل خلدون الحضرميون أخذوا من القلق والذكاء اليمينيين نصيباً وافراً ، حملتهم أمواج الفتوح إلى أشبيلية في الأندلس ، وهنا أثروا وتمولوا وبلغوا مكانة عليا بين أهل البلد وهناك أيضاً تحور اسمهم من آل خالد إلى آل خلدون والواو والنون هنا زائدتان تضافان إلى الاسم للتفخيم فيقال : سعدون وحمدون وبدرون وخلدون ، وأصل هذه الزيادة لاتيني ، فكان الرومان يقولون للرجل الكبير الأنف : Norazan ويعظمون اسم سيبيو فيقولون : سيبيون ونيرو - أي الأسود - فيقولون : نيرون . وشيسيرو فيقولون : شيسيرون ، في أشبيلية بلغ آل خلدون من القوة والجلالة ما جعلهم في إقليم أشبيلية واحداً من البيوت الإقطاعية الإقليمية التي نافست على رئاسة إقليم أشبيلية وكان بينهم وبين منافسيهم - آل حجاج - نزاع طويل ثم ضربت الأيام ضرباتها وانتهت أيام أشبيلية المسلمة جملة ، وفي سنة ١٢٤٨ سقطت أشبيلية في يد فرناندو الثالث وخرج منها آل خلدون وفي جملتهم محمد بن خلدون - والد عبد الرحمن - وحط رحاله في تونس أيام الحفصيين ، وهنا ولد عبد الرحمن سنة ٧٢٢ / ١٣٢٢ وهناك نشأ ودرس ثم استقل بنفسه ودخل خدمة السلطان ، وجرب حظه في بلاط تونس فلم يبلغ ما أراد فشد رحاله إلى فاس - عاصمة بنى مرين في المغرب الأقصى - ودخل في خدمة السلطان أبي عنان فارس المريني وهو نموذج من نماذج سلاطين المسلمين في العصور المتأخرة ، ومثال من فشل نظم الحكم التي قامت في بلاد الإسلام ، فهذا الرجل أبو عنان حارب أباه السلطان أبا الحسن المريني وطارده حتى أزهق روحه ، والوالد التعيس مات شقيلاً لاجئاً إلى قبيلة جبلية هي « هنتانة » مات وابنه يحاصره ويطلب رأسه وعندما مات الأب نشهد مشهداً من مشاهد النفاق المخجل ، فأبو عنان بعد ما فعل بأبيه ما لا يفعله الرجل مع ألد أعدائه وقف يبكي أباه وصل عليه ووقف الابن القاتل يبكي الأب القاتل ثم يأمر والحزن الكاذب على وجهه الكالح بأن يسجى أبوه العزيز في مقبرة من أجمل مقابر سلاطين آل مرين في بلدة « شالة » أو « شلا » غير بعيد عن العاصمة فاس ..

إلى هذا السلطان فارس أبي عنان وقد ابن خلدون يرجو العز والرفعة فوجد نفسه في أجمة السباع المتقاتلين على باب السلطان ، ووفق أول الأمر بعض التوفيق فأرسله

أبو عنان سفيراً إلى الأندلس ليفاوض الملك القشتالي بدرو القاسى فى شئون أسرى المسلمين ، وفى غرناطة يلتقى ابن خلدون بابن الخطيب وزير سلطان غرناطة ، ولسان الدين ابن الخطيب كان أديباً شاعراً كاتباً مؤرخاً ذائع الصيت ، ولكنه كان قبل كل شىء إنساناً يعيش بلا قلب ، فكل ما كتب - وهو كثير جداً - يخرج من رأسه إلى قلمه دون أن يمر بقلبه ، فهو كاذب حيثما كتب ، جامد القلب حيثما قال ، كأنما هو ماكينة تكتب لا إنسان يحس ويشعر ، وبديهي أن ينفر ابن الخطيب من ابن خلدون هذا الطارئ على غرناطة فهو عالم ذكى كاتب أديب فخافه على مركزه وما زال به حتى أخرجته من غرناطة شبه طريد ، وعاد ابن خلدون إلى المغرب حيث ألفت به مؤامرات القصر بعيداً فى جبال القبائل شرقى مدينة الجزائر الحالية ، وكان ابن خلدون فى أثناء تلك المغامرات يكتب تاريخه ، وفى واحة بسكرة جنوب غربى مدينة الجزائر أجمل واحات الدنيا كتب ابن خلدون الصورة الأخيرة من مقدمته ، وما زالت هذه النسخة بخط ابن خلدون محفوظة فى إحدى مكتبات استانبول وتلك هى النسخة الجميلة التى اعتمد عليها فنسان منصور مونتائى فى ترجمته الفرنسية التى أشرنا إليها .

ومن بسكرة والجزائر نهض ابن خلدون قاصداً مصر فدخلها أيام السلطان برقوق أول سلاطين المماليك الجراكسة ، وقد هيأناه نحن فى مصر وزوقناه وسميناه الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس اليلبغاوى أى : مملوك اليلبغا (٧٨٤ - ٨٠١ / ١٣٨٢ - ١٣٩٨) وكان رجلاً عاقلاً رزيناً قام بتمثيل دور السلطان فى مهارة يشكر عليها ، وكانت القاهرة قد أصبحت مدينة العالم الإسلامى وملتقى أهل العلم فيها جميعاً ، والأزهر كان يضيء ويتألق ونشأت حوله مدارس كثيرة للحديث وحول مشيخات (أى عمادات) الأزهر ومدارس الحديث قامت حرب الأساتذة ، وكان على عبد الرحمن بن خلدون أن يخوض معركة تلك الحرب ، وقد خاضها وأدرك فيها بعض التوفيق فأحبه السلطان برقوق ثم ابنه السلطان فرج ، ووصل إلى منصب قاضى قضاة المالكية مرة بعد أخرى ، ولكن ابن خلدون مع ذلك لا يرضى ولا يحمد الله ويتهم مشايخ مصر وقضاتها بما لا يسر ، وينسى ، أنه هنا على الأقل اطمأن واستراح وجلس يقضى بين الناس ويتلقى الراتب والجراية .. ولكن القلق اليمنى لم يفارقه قط ، وفى عام ٧٩٧ / ١٣٩٤ نجده معتزلاً ، وفى هذه العزلة يكتب ويراجع وينقح تاريخه ، وفى سنة ٨٠٣ / ١٤٠٠ يخرج مع طائفة من العلماء إلى دمشق وكان يحاصرها تيمور لنگ ،

ويحكى ابن خلدون في مذكراته المطبوعة كيف تحيل على تيمور حتى أفلت بجلده عائداً إلى القاهرة وهو في مذكراته تلك (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً) لا يصدقنا القول أحياناً ، فهو يطرى نفسه ويزوقها ، ولكنها على أى حال واحدة من تراجم الحياة الأصيلة القليلة في أدبنا العربي ، وبعد عودته إلى مصر يفجعه القدر في أسرته فقد كان قد أرسلها بالبحر من الشام إلى مصر ففرق المركب بمن فيه ، وفي سنة ٨٠٨ / ١٤٠٥ يتوفى هذا الرجل العجيب مخلفاً وراءه تاريخه العالمى المسمى بكتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ومقدمة ذلك التاريخ الذائعة الصيت .

فأما المقدمة فانت تعرفها ، فهي محاولة جديرة بكل تقدير للوقوف على الدوافع المحركة لتاريخ البشر ، وفي أثناء هذه المحاولة يضع ابن خلدون قواعد أو تصورات حول ما يسمى بدورة العمران أى تطور الجماعات البشرية من البداوة إلى الحضارة ، والبداوة عنده هى الحياة البدائية البسيطة في البوادي والأرياف ، إنها حياة البدو والفلاحين ، وابن خلدون يرى أن قبائل البدو تتكاثر وتستقوى وتتجمع وتهاجم قواعد العمران وتتغلب عليها وتنشئ لأنفسها فيها دولاً ، فإذا هى أنشأت الدول فقد دخلت في طور الحضارة والاستقرار والملك وعرفت القصور ورفاهة العيش ورقة الحواشى والجند المرتزق ، وهنا تبدأ في التدهور والضعف ، وابن خلدون يذهب إلى أن ما يضعفها هو الترف وهو عنده التقلب في النعمة والبعد عن خشونة العيش وصراع الحياة ، وابن خلدون هنا يصيب أحياناً ويخطئ أحياناً ، ولكنه لا يختلف في ذلك عن جيامباتيستا فيكو أو بندتو كروتشى أو أوزفالد شينجر أو أرنولد توينبي ، فكل هؤلاء مؤرخون كبار يصيبون ويخطئون ولكنهم دون شك قمم علم التاريخ ، فإن الواحد منهم لا يصل إلى درجة الاطلاع الواسع وإصدار الأحكام العامة والبحث عن قوانين تحكم حياة البشر إلا بعد جهد وفكر وعناء ، وهذا هو الذى يجعل لابن خلدون هذه المكانة الكبرى في تاريخنا الفكرى : إنه رجل فكر وقد استعمل ذهنه خير استعمال وعرف كيف يخرج عن السرد التاريخى الممل إلى التفلسف والنظر والتخلص من استبعاد الذاكرة والحفظ إلى حرية التفكير ، ولكى يتكلم ابن خلدون في حرية كان لا بد أن يدير فلسفته كلها على أهل الماضى الذين ذهبوا ولو أنه فكر في استخدام ذهنه في أحوال عصره لطارت رقبته قبل أن يكتب .

والذى يعينى هنا هو أن أقول : إن الناس عندما يحسبون أن ابن خلدون لا يتميز إلا بمقدمته فهم يقللون من شأن تاريخه المسمى بكتاب العبر ، ويحسبون أنه تاريخ عادى لا يتميز على غيره من التواريخ العامة التى كتبها غيره ، وهذا ظلم لابن خلدون الحق به جيل طه حسين وعبد الحميد العبادى وأحمد أمين ؛ لأنهم لم يقرأوا تاريخ ابن خلدون وهم معذرون ؛ لأن هذا التاريخ الطويل (ست مجلدات) لا يصبر على قراءته ليتعرف قدره إلا مؤرخ وهب حياته كلها لهذا العلم الجليل .

قد لا يتميز تاريخ ابن خلدون عن غيره فيما يحكى عن تواريخ العرب الجاهليين والفرس ، ولكن ابن خلدون هو الوحيد بين مؤرخينا الذى كتب ما يمكن أن نسميه تاريخاً علمياً للعصور القديمة ، فهو يعرف اليونانيين معرفة جيدة ويفرق بينهم وبين المقدونيين ، وهو يعرف أوليات تاريخ الرومان ويتتبع تطور دولتهم من عصر الملوك إلى الجمهورية إلى الامبراطورية ، وهو يسمى الرومان باسمهم الحقيقى وهو اللطينيون وهو يعرف الأثروسكيين ويسميهم « الكيتم » وهو لفظ حيرنى وسألت أهل الشأن فيه فلم أخرج بطائل ويعرف القياصرة المنتصرة من أيام قسطنطين ، وهذا هو الاسم الذى يطلقه على الروم البيزنطيين ويحكى تواريخهم إلى الدولة الهرقلية ، ويؤرخ للشعوب الجرمانية ويقف عند القوط ويقدم لنا تاريخاً كاملاً لملوك القوط الغربيين فى إسبانيا ويسميهم الجلاتقة المعاصرين للأندلس الإسلامى .

ولكن درة هذا التاريخ هى مجلده الرابع والسادس ، ففى الرابع يتحدث عن العرب المستعجمة أى العرب الذين عرفوا خصائص العروبة ، وفى المجلد السادس يتحدث عن البربر وهم من أجل شعوب الإسلام فهم أهل الشمال الإفريقى ، وابن خلدون يقدم لنا أوفى تاريخ للعرب الهلالية وأصحابهم من بنى سليم بن منصور ، وهم أصحاب التغريبة أو الغزوة الهلالية ، وهم أصحاب الفضل فى وجود هذا المغرب العربى العظيم الذى يتألف منه الجناح الغربى المبارك لعالم العروبة والإسلام .

وابن خلدون هنا - فى التاريخ - جغرافى مؤرخ انتوغرافى اجتماعى على صورة هى أصفى مما نجدها فى المقدمة ، فهو هنا لا يضع نظريات أو يعتسف قوانين ، بل يؤرخ ويدرس ويحلل ويعطينا صورة أشبه بلوحة أشعة سيتية لجسم قطاع كامل من قطاعات أمة الإسلام : قطاع المغرب الذى كان قبائل بربرية ثم أسلمت واستعربت

وأقامت دولاً وممالك بعد أن دخلت التاريخ تحت راية الإسلام ، هنا نجد القوة الحقيقية لابن خلدون وموضع فخره الذي لا ينازعه فيه أحد ، هنا نحن مع قمة ربيعة الذروة من قمم فكرنا العربي : قمة التاريخ التي تضاهى في ارتفاعها وشموخها واعتراف الدنيا كلها بها ، تلك القمة السامية الذرى التي يقف عليها الشريف الإدريسي ، وكلاهما يؤكد وحدة الأمة الإسلامية أفقياً ورأسياً بكتابة جغرافية الوطن الإسلامى وتاريخه ، وكل منهما يتميز على غيره من المؤرخين والجغرافيين بأنه يضع أمة الإسلام في الوضع الذى تستحقه : أمة العلم والمعرفة التى تدرس وتبحث وتستكشف طبيعة الدنيا في موكب العلم والعرفان .

obeikandi.com

الْفَقْهَاءُ وَبِنَاءُ الْقَاعِدَةِ الصَّلْبَةِ لِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ

تحدثنا آنفاً عن بعض الأعلام من أهل الفكر والعلم في تاريخ الإسلام ، وبيننا دور أهل الفكر في بناء عالم الإسلام وإقامة صرح حضارته ، وشرحنا كيف كان رجال الدولة وأهل الصراع السياسى يحطمون وحدة عالم الإسلام ويقطعون أوصاله ويضعون السدود والقيود بين شعوبه بعضها وبعض ، بينما كان الصادقون المخلصون من رجال الفكر يعملون جاهدين على توثيق الصلة بين أجزاء أمة الإسلام وأجيالهم ، فالجغرافيون يؤكدون الوحدة الأفقية المكانية ، والمؤرخون يؤكدون الوحدة الزمنية ويربطون ماضى الأمة بحاضرها ، وأهل العلوم يشاركون في ذلك وينثرون بصائر الأمة إلى مستقبلها ويفتحون أعين الناس على حقائق الحياة ، وهؤلاء يتلاقون على بساط العلم حيناً وفي رحاب الكعبة أو في مدينة الرسول وعاصمة الإسلام الأولى حيناً آخر ، وهم في غدوهم ورواحهم وتلاقيهم في مجالس الشيوخ وحلقات الدرس في المساجد يصنعون ذلك النسيج العظيم الذى نعيش نحن في رحابه ، وهو نسيج العالم العربى يحيط به نسيج عالم الإسلام ، وفي سياق كلامنا تحدثنا عن أعلام تخطوا بعلمهم عالم الإسلام وأسهموا بعلمهم في بناء حضارة البشر ، وأصبحوا مفاخر للإنسانية جميعاً ، وضرربنا مثاليين من الإدريسى وابن خلدون ، وفيما يلى سنتلقى بأعلام آخرين من هذا الطراز أوسعوا للعروبة وأهلها مجالاً فسيحاً صدرًا في سجل بناء حضارة البشر أجمعين .

* * *

واليوم نبدأ الحديث عن جماعة من أهل العلم المسلمين الذين يعتبرون - بحق - بناء قاعدة المجتمع الإسلامى كله وأصحاب الفضل فيما تميز به بنيان العالم الإسلامى من صلابة بناء مكنت له من الاحتفاظ بسلامة كيانه دون تصدع يخشى خطره ، رغم ما كان أهل الدول يقترفونه من أخطاء كبرى فى حق أمة الإسلام وسلامتها ، وكذلك رغم ما تعرض له عالم الإسلام فى جملة من صدمات وتحديات بلغ عنفها أحياناً مبلغ

الخطورة على الكيان نفسه ، فقد كانت غارات الصليبيين - مثلاً - صدمات بالغة العنف وصلت إلى قلب العالم الإسلامي نفسه ، ولكن صلابة نواة المجتمع الإسلامي مكنت له من تحمل صدمات هذه الغارات ، فلم يخسر عالم الإسلام رغم الصراع الطويل إلا الأندلس وجزائر البحر المتوسط ، ولم يكن ضياع الأندلس وجزائر البحر نتيجة لضعف البناء الاجتماعي للعالم الإسلامي ؛ بل لأن تخريب رجال الدول والرؤساء بلغ هناك مبلغ التدمير الإجرامى على سلامة الجماعة الإسلامية ، فإن الذى فعله أولئك الذين نسميهم بملوك الطوائف فى الأندلس وصقلية لا يمكن أن يوصف إلا بأنه سلسلة من الجرائم دبرها أولئك الرؤساء بنية شريرة فعلاً ، ويكفى أن نضرب مثلاً واحداً يبين للقارئ ما انطوت عليه نفوس بعض أولئك الرؤساء من طوية بالغة الشر والسوء ، فقد استقل بناحية بطليوس من بلاد الأندلس بعد ضياع الوحدة السياسية الأندلسية بسقوط الخلافة الأموية سنة ١٠٣١ م ، وكانت ولاية كبيرة تقع شمال غربى قرطبة على نهر لوادى أنة استقل بها رجل من زعماء البربر الأندلسيين ، يسمى عبد الله بن مسلمة ، ينسب نفسه إلى بعض العرب ويلقب بابن الأفطس وجعل نفسه أميراً على تلك الناحية ، وصار يدفع الجزية للملك قشتالة فخطبه أحد الشيوخ فى إعادة وحدة الأندلس وإنشاء جبهة تقاوم الضغط الإبانى فكان جوابه : لو أن أباً بكر وعمر جاءنى يطلبان منى التنازل عن ملكى لحاربتهما بالسيف .

فتأمل والله وقاحة هذا الرجل وقصر نظره وغبائه ، فقد كان يدفع الجزية لرجل نصرانى ويسمى نفسه ملكاً ، وكان يذل نفسه أمام ألفونسو السادس ملك قشتالة ، ولكنه مستعد لمحاربة أبى بكر وعمر بالسيف دفاعاً عما سماه ملكه ، لقد توفى هذا الحقير التعيس سنة ٤٣٧ هـ / ١١٤٢ م وخلفه ابنه أبو بكر الذى تلقب بالملك المظفر ثم جاء بعده حفيد له يسمى أباً حفص عمر وتلقب بالمتوكل على الله ، وهذا المتوكل على الله عندما سمع أن يوسف بن تاشفين البطل العظيم نزل الأندلس ودعا إلى وحدة الصف فضّل أن يتوكل على الملك ألفونسو السادس فجعل يستغيث به على الأمير المسلم المجاهد يوسف بن تاشفين ، فهل نتعجب من أن يوسف بن تاشفين أمر بقتل هذا الرجل عقاباً له على جرائمه وجرائم آله من بنى الأفطس فى حق جماعة الإسلام ؟ ومع ذلك فإن شاعراً أندلسياً يقال : إنه عظيم هو عبد المجيد بن عبدون قال فى رثاء بنى الأفطس قصيدة هى أبرد من الثلج ، ومع ذلك يصفها ابن بسام بأنها عصماء وفريدة بلا نظير

يحمل فيها على الدهر الخَوَان الذى يغدر بعظماء الملوك ، ومنهم هؤلاء التعساء بنو الأفطس :

نعم هو الدهر ، ما أبقت غوائله على جديس ولا طسم ولا عاد
وأسلمت للمنايا آل مسلمة وعبّدت للرزايا آل عباد

ومثال هذه القصائد هي التي تجعل قارئ الشعر العربي التقليدى لا يحس بأى صدق أو إنسانية فى الكثير جداً مما يقرأ منه .

وإنما ضربت لك هذا المثل لترى أى نوع من أهل الدول كان يتولى أمور المسلمين فى الأندلس وقت الخطر ، فهل نتعجب بعد ذلك من أن الأندلس ضاع من أيدينا ؟ وهل هو ضاع إلا بأيدينا ؟

وهذا الأندلس الذى انفرط عقده السياسى سنة ١٠٣١م ظل قائماً يجاهد عن نفسه فلم يطفىء الأعداء أنواره إلا بعد ٤٦١ سنة من سقوط الخلافة وضياع الوحدة السياسية وتصدى أمثال بنى الأفطس وبنى عباد وبنى ذى النون للقيادة ، وما ذلك إلا بفضل متانة البنيان الاجتماعى للشعوب العربية والإسلامية جملة .

والفضل الأول فى متانة ذلك البنيان الاجتماعى يرجع إلى الفقهاء وأولئك العلماء الصادقين الذين عرفوا كيف يبنون لأمة الإسلام قاعدة شرعية أى قانونية وتكوينية اجتماعياً متيناً وشدوا ذلك بقواعد أخلاقية مكنت لهذه الأمة من مغالبة عواصف القرون ، وقد أشرنا إلى صدمة الصليبيات ويندرج فى معناها هجوم التتار وفى عصورنا الحالية موجة الاستعمار ، وقد كانت غزوة بالغة الخطورة قامت على أسس علمية مدروسة وخطط خبيثة شريرة أريد من ورائها إبادة أمة الإسلام ، وقد ظن أصحابها عندما استولوا على بلاد العروبة والإسلام جميعاً أنهم يزيلون الإسلام من أرضه بأيسر مئونة فما راعهم إلا الإسلام وحده ! يزيلهم من أراضيه ويخرج بشعوبه مظفراً من تلك الغارة بل يفزهم فى ديارهم ، وما نحن أولاء فى أيامنا هذه نسمع صرخات بعض أهل الغرب من أن الإسلام عاد إليه اليوم شبابيه وأخذ يغزو بلاد الغرب نفسها وينتشر بين أهلها ويدخل فيه نفر من أجلاء أهل الفكر والغرب من أمثال : ميشيل شود كليفيتش رئيس دار نشر « سوى Sawie » فى فرنسا وفرنسان (منصور) مونتائى من أكابر أساتذة جامعة باريس ، وروجيه (رجاء) جارودى وموريس بيجار من أكبر

فنانى فرنسا ، وبير بنوا ميشيل من كبار المؤرخين الفرنسيين ، واليكس هيلى الأديب الأمريكى مؤلف « الجذور » ، ومحمد على كلالى الملاك المشهور ، وغيرهم كثيرون جداً .
ولم تنجُ أمم العروبة والإسلام من تلك الأخطار إلا بفضل القاعدة الشرعية والاجتماعية والأخلاقية التى بناها الفقهاء بجهد صادق وإخلاص عميق وحب لأمة الإسلام شامل ورغبة أكيدة فى خدمة أمة الإسلام ، وأكثر ما يروع النفس فى ذلك العمل هو إخلاص أجيال الفقهاء فى ذلك من القرن الهجرى الأول إلى أواخر الخامس ، ولم يصلهم من أصول الفقه ثابت النص دون شك إلا القرآن الكريم فكان عليهم بعد ذلك أن يضعوا القواعد ليستوثقوا من كل خبر وصل إليهم من سنة الرسول ﷺ ، وهنا بلغوا فى التحرى والضبط مبلغاً يفوق كل تصور الأجيال الأولى بالذات : تلك التى انتهت بالأئمة الأربعة ، أجيال تدين لهم أمة الإسلام كلها بسلامتها ، ومن مآثرهم الكبرى أنهم وضعوا بأنفسهم القواعد العلمية التى ساروا عليها فى جمع الحديث وضبطه ، ثم وضعوا أسس استخراج الأحكام من القرآن والسنة ومآثور عمل كبار الصحابة وما ينتهى إليه القياس السليم والاستنتاج الصحيح فهم على ذلك بناء منهج علمى يقوم أساساً على الإخلاص لله وأمة الله دون نظر إلى أى اعتبار من اعتبارات المصلحة وإغراء الدنيا .

وأقف هنا عند فقهاء المدينة السبعة وهم سبعة من التابعين وهبوا أنفسهم لخدمة الأمة بوضع قانون أخلاقى مستخرج من كتاب الله وسنة نبيه ، بل كان عليهم أن يجمعوا مادة هذه السنة وهى الأحاديث ووضع الأسس لجمعها جمعاً سليماً وكانت القاعدة عندهم أنهم يعاملون الخالق سبحانه لى تصح خدمتهم للمخلوق ، ولن أكثر عليك من الأسماء بل سأكتفى بواحد من أولئك السبعة اتفقت آراء الفقهاء على أنه نموذجهم الحى وصورتهم الباقية وهو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب المخزومى الذى يلقب بإمام التابعين ، هذا الرجل مدرسة كاملة فقد جعل همه وضع الأسس السليمة لاستخراج الأحكام ، وكانت مجموعات الأحاديث النبوية الصحيحة لم تظهر بعد ؛ لأننا نتحدث عن رجل توفى سنة ٩٤ هجرية فكان عليه أن يدقق فى كل حديث يصله لى يستوثق من صحة صدره عن رسول الله ﷺ ، فكان لا يكف عن السؤال وكان - كما قال هو - يرحل الأيام والليالى فى طلب الحديث الواحد والتأكد من

صحته ، ومنذ البداية قرر ألا يخدم الدولة أو الحكام فاعتمد على أربعمائة دينار ورثها عن أبيه واشتغل بتجارة الزيت ، وتجارة أولئك الناس لم تكن تجارة دكاكين إنما هي تجارة مخازن أى أن بضاعة الرجل تكون في بيته .

وكان كل منهم يكتفى بصنف واحد يتقنه ويشتهر به ويعامل الله في بيعه وشراؤه فلا تكون التجارة وسيلة للكسب والغنى أو سبيلاً للغش . إنما هي خدمة للناس ومعاش كريم لصاحبها ، وعندما نقرأ أن رسول الله ﷺ كان يعمل في التجارة قبل البعثة فهذا كان أسلوبه فيها فتجارته في بيته ونوعها معروف وسعرها معروف وضمير صاحبها لا شك فيه : فلا يضيع الوقت في المساومة والمماطلة إنما هي سبيل كريم للعيش وخدمة للناس ، وكان سعيد بن المسيب يستفتى ضميره في كل رأى يقوله فعندما طلب إليه هشام بن إسماعيل وإلى المدينة أن يبايع لولدى عبد الملك بن مروان توقف : لأن البيعة لا تكون صفقة يفرضها ولي الأمر على الناس إنما تكون شورى بين المسلمين ، ومن أين يعلم سعيد بن المسيب أن الوليد بن عبد الملك وأخاه سليمان يصلحان لولاية أمور المسلمين وقد ضربه الولى سبعين سوطاً لكى يبايع فلم يفعل ولم يكن يحفل للخليفة لأنه - أساساً - كان يرفض الخلافة الأموية ويرى أنها ولاية غصب ومال خلفائها حرام وأخذه حرام أيضاً ، وكان الخليفة الأموى يتصور أنه يشتري ضمائر الناس بما يعطيهم من العطاء أى الرواتب فاستغنى سعيد عن ذلك ، في نفس الوقت كان سعيد رجلاً حر الفكر واسع الأفق عميق النظرة لا يحكم إلا بالصالح وما فيه المنفعة أتاه عبد الرحمن بن حرملة وقال : وجدت رجلاً سكران أفترانى يسعنى ألا أرفعه إلى السلطان ؟ أى هل يجوز لى ألا أبلغ عنه رجال الدولة ؟ فقال له سعيد : إن استطعت أن تستره بثوبك فافعل ولم يكن ذلك من سعيد ترخصاً في جسامة خطيئة شرب الخمر ولكنه كان يرى أن السلطان ورجاله ليسوا أهلاً لعقاب الناس على شرب الخمر ؛ لأنهم هم أنفسهم يشربونها بل غارقون فيها ، فإذا جاءت الخلفاء وولاتهم شكوى في أمر رجل يشرب الخمر انتهزوها فرصة ليستروا مخازيهم ويتشددوا في عقاب الرجل حتى يقال : إنهم متشددون في أمور الدين أما الذى يجوز له أن يحقق أمر اتهام الناس بشرب الخمر فهم العلماء الصادقون الذين يتحرون الحق ويراعون الله ولا يراءون الناس .

وهذا الموقف من سعيد بن المسيب - وهو أيضاً موقف أهل جيله من بناء علم الفقه يضع يدنا على قاعدة سليمة جداً وضعها أولئك الناس وحافظوا عليها وأورثوها من بعدهم من أجيال الفقهاء وهو أن التشريع لا ينبغي أن تتولاه الدولة ورجالها ؛ لأنهم أهل سياسة وأهواء ومصالح فهم يبيحون ويحرمون بحسب مصالحهم ويحللون ويحرمون بحسب أهوائهم ، وقد رفض الفقهاء رفضاً باتاً أن يسمحوا للدولة بأن تشرع بل رفضوا أن يكون للدولة فضل في تعليم الفقهاء وتربية القضاة ، فلم يطلبوا من الدولة أبداً أن تنشئ معاهد يتعلم فيها الصبيان ثم يواصل المهويون منهم الدراسة على نفقة الدولة حتى يكونوا فقهاء وقضاة ؛ لأن الدولة إذا تولت هذا الأمر وضعت قواعد تكوين الفقهاء والعلماء والقضاة على هواها ، لهذا فضلت الأجيال الأولى من أهل العلم أن يكون المسجد هو المدرسة وهو المحكمة ؛ لأن المسجد هو بيت الله وبيت الأمة في نفس الوقت ، ورفضوا كذلك أن يكونوا موظفين في الدولة أو تكون لهم راتب لأن الراتب يكون أول الأمر معاشاً ثم يصبح قيداً على ضمير صاحبه ، والأمة هي التي تعلم أبناءها وتقوم بأمر طلاب العلم في الكتاتيب أولاً ثم في حلقات الشيوخ في المساجد حتى إذا اكتمل تكوينهم وثبت علمهم أخذت الدولة منهم القضاة ، ومعظم كبار القضاة كانوا يرفضون القضاء ؛ لأنهم كانوا يابسون على أنفسهم أن تتكرم الدولة عليهم بالاختيار للوظيفة فإذا كان لا بد من أن يتولى بعضهم القضاء فليكن ذلك بلا راتب ، هؤلاء الناس لم تكن لقمة العيش تحيرهم ؛ لأن الأرزاق بيد الله لا بيد الحكام ولم يكونوا كذلك متبطلين يعيشون عالة على الناس إنما هم كانوا يأخذون أتعاباً متواضعة من التلاميذ وطلاب العلم ومن كتابة العقود وهي الوثائق وقسم المواريث وهي الفرائض .

ومالك بن أنس قال ذات مرة لواحد من تلاميذه : لا تطلب المال يطلبك المال ، وارفح همتك عن الخلق يرفعك خالق الخلق ، وإذا لم يكن لك من مالك الحلال ما يغنيك عما بأيدي الناس فلتكن لك حرفة تعيش منها ، واعلم أنك إذا أنزلت نفسك للمال مرة أنزلتها له عمرك كله وضاع علمك كله سدى .

وقد اقترح ابن المقفع في رسالة الصحابة على الخليفة أن يجمع جمعاً من العلماء يضعون شرعاً مقنناً يتبعه القضاة جميعاً فرفض الفقهاء ذلك ؛ لأنهم لم يوافقوا قط على أن يتركوا أمر التشريع للدولة . بل رفضوا كذلك أن يتركوا للدولة أمر تنفيذ الأحكام إلا أن يكون ذلك تحت رقابة الفقيه القاضى ، وإذا كان لا بد من أن يستعين القاضى في

تنفيذ أحكامه فليكن هو الذى يختار أعوانه وأعوان القاضى الذين يقومون بتنفيذ أحكامه يكونون فى هذه الحالة رجال القاضى وإن كانت الدولة هى التى تعطيهـم روايتهم ..

ومنذ البداية قال أهل العلم : إن أمور الدنيا والدين واحدة وإن الذى يقضى فى أمور الدين هو نفسه الذى يقضى فى شئون الدنيا ، فليس هناك نظام للعبادات ونظام للمعاملات لأن الصلاة مثلاً ليست مجرد عبادة بل هى أخلاق ومصدر أخلاق فهى تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وأمور الدنيا والدين كلها يحكمها القرآن وسنة رسول الله لأن القرآن يقرر المبدأ ورسول الله يطبقه ، ولهذا فإن القرآن والسنة هما العلم وحفظهما والإحاطة بهما تخرج العالم أى الذى يعلم الأصول . أما استخراج الأحكام من القرآن والسنة معاً فيحتاج إلى قدرة على الاستنباط والاستخراج السليم وهذا هو الفقه أى الفهم الصحيح للقرآن والسنة والقدرة على استخراج الأحكام منهما معاً والحكم الذى يستخرجه الفقيه يسمى الرأى . ومن الممكن أن يكون الرأى خاطئاً ولكن الفقه وهو طريقة استخراج الرأى لا بد أن يكون سليماً ، وأسس السلامة هى خلوص النية وصحة الإيمان وسلامة النفس والعلم الكامل بالقرآن والسنة ، والذكاء الذى يمكن الإنسان من استخلاص الدقائق ثم البعد عن الهوى فلا يكون لميل الإنسان الشخصى أو لمصلحته أى دخل فى رأيه . فإذا اجتمعت للرجل صفات العلم والفقه مع الخلق السليم المتين وصدرت عنه الآراء الكثيرة السليمة القائمة على الفقه الصحيح أصبحت مجموعة آرائه وطريقته فى استخراج هذه الآراء مذهباً يمكنك أن تتبعه دون أن يكون ذلك ملزماً لك ، فأنت ملزم بما يطمئن إليه قلبك ويرضاه ضميرك وتحس أنه يتفق مع ما جاء فى القرآن والسنة ، والفقيه المحدث مجاهد قال : إن موهبة استخراج الآراء الفقهية السليمة هى الحكمة التى يؤتيها الله من يشاء ..

والطريق الذى سار فيه أولئك الرجال فى بناء صرح الفقه الإسلامى وما تجشموه من الصعاب فى وضعه وضْعاً سليماً على قاعدة متينة من القرآن والسنة طريق شاقة كلفتهم الزهد فى الدنيا وما فيها ووضع حياتهم كلها فى خدمة الأمة فلا المال أغراهم ولا الوظائف اجتذبتهم ولا السلطان أخضعهم ، وفى النهاية أرغموا الدولة على الخضوع لسلطان العلم والفقه ، وإذا لم يستطع أولئك الفقهاء إرغام الدولة على اتباع منهج الإسلام فى اختيار الحكام فقد رفضوا النظام القائم للدولة وطريقة أصحاب السلطان فى

الوصول إليه ، وهنا وقع الانفصال الحاسم النهائي بين الدولة والأمة ، فمضى أصحاب الدول في سياستهم كيف شاءوا ، وسارت (أى الأمة) في طريقها ملتزمة القرآن والسنة وما وضعه وارتضاه أهل العلم والفقه في استخراج الأحكام ، من هنا نفهم كيف أن مالك ابن أنس كان يلقب بأمير المؤمنين في الحديث أى رئيس الأمة فيما يتصل بالقواعد الشرعية التى ينبغى أن تسير عليها أمور الأمة ، ولأصحاب الدول ورجال السياسة أن يسلكوا ما شاءوا من الطرق ، ولكن الأمة لا تلتزم حيالهم إلا بأمرين : الطاعة الظاهرة إذ لا معنى لأن تظل الأمة دائماً في فتنة بين الحاكم والمحكوم ، وما دام الحاكم لا يلزم الناس بأحكامه فهو حر في السلوك الذى يتبعه وحسابه على الله ، والأمر الثانى : هو أداء المال أى الضرائب ، وما دام الحكام قد استحلوا لانفسهم أن يستخرجوا من الناس أموالاً لا يقرها الشرع ثم ينفقوها في غير صالح الأمة . فالأمة أيضاً لها الحق في التهرب من أداء المال الذى تعتقد أنه حرام ، فإذا قام في الأمة حاكم ظالم وفرض على النخلة الواحدة ضريبة سنوية قدرها درهمان بدل درهم واحد فإن دافع الضرائب له الحق في أن يقرر أن نصف نخلاته قد احترقت فلا يدفع إلا عن النصف : وعدوان الدولة على الناس علم الناس أيضاً العدوان على أحكام الدولة الظالمة : لأن المواطن غير مسئول إلا عن التشريع الذى يقره حكامه الحقيقيون وهم الفقهاء .

وفي النهاية سلمت السلطة الحاكمة بأن القوة الحقيقية ينبغى أن تكون للعلم والفقه والخليفة المهدي - ثالث خلفاء بنى العباس - عندما أحس بأن الأمة لا تسلم بشرعية دولته أعلن أن دولته دولة السنة والجماعة وأنها خادمة السنة والجماعة وسواء أكان المهدي صادقاً في ذلك أم غير صادق . فإن إعلانه هذا كان نصراً حاسماً للإسلام وشرعه وفقهائه ، وقد حكم الخليفة المهدي (محمد بن عبد الله المنصور) ما يزيد على عشر سنوات (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م) تعتبر حاسمة في تاريخ الدولة العباسية لا في تاريخ أمة الإسلام ، ففي العصر الأموي كانت السياسة توجه الدولة وكان معاوية لا يستحى أن يقتحم ما حرم الله كما فعل عندما فرض ابنه يزيد على الناس وهو يعلم أنه لا يصلح لولاية أمور المسلمين . بل كان الخليفة المنصور العباسي لا يتورع عن جرم إذا رأى أن صالح دولته يقتضى ذلك فجاء المهدي وأعلن أنه لا يعمل إلا بما فيه صالح الأمة ، فرضيت عنه الأمة وأصبحت الدولة العباسية - من الناحية النظرية على الأقل - دولة السنة والجماعة ، أى خادمة الأمة وعندما تولى هارون الرشيد

كتب إلى واليه هرثمة بن أعين بأن يستشير في كل أموره أولى الفقه في دين الله وأولى العلم في دين الله ومعنى هذا أن الشريعة أصبحت فوق الدولة ، وأن الدولة بكل ما فيها خادمة الشرع ، وهذا من أكبر الانتصارات التي حققتها الحضارة الإسلامية ، وقد وصل فقهاء المسلمين إلى هذا النصر بالإخلاص والصدق والتزام المنهج العلمي السليم مع الدقة والضبط واعتبار خلق العالم أساساً لكفايته العلمية أو شرطاً للثقة فيه ، فقد كان البخارى يرحل ألف ميل ليأخذ حديثاً عن رجل ، فإذا جالسه ورأى من تصرفه ما يريبه في علمه ترك حديثه جملة .

وقد قرر أولئك العلماء مبدأً ثانياً يعتبر من مفاخر الفكر التشريعى الإسلامى وهو أن كل رأى أو حكم يصدر على أساس من القرآن والسنة لا بد أن يكون فيه - تلقائياً - صالح الناس لأن الله سبحانه أعلم بعباده وأراف بهم من أن يشق عليهم ، ومن هنا فإن المشرع ينظر إلى صالح الناس ويرى ما فيه صالحهم ، وما فيه صالحهم لا بد أن يوافق ما فى القرآن فإذا بدا للفقهاء رأيان : واحد يسهل على الناس الأخذ به . والثانى يشق عليهم فليأخذ بما يسهل على الناس وهو واثق من أن ذلك يتفق مع ما يريد الله سبحانه ، ومن هنا جاء مبدأ الاستصلاح وهو أن الفقيه يقضى بما يستصلحه للناس أى ما يراه صالحاً لهم ما دام يعتمد أساساً على القرآن والسنة .

وقرر أولئك الفقهاء كذلك مبدأ علة الشرع أو منطقيته ، فبينما يحفل القانون الرومانى بالأحكام التى لا يقيد بها المنطق نجد أن كل أحكام الشريعة تتفق مع المنطق ، وما يغيب عن منطق اليوم يتجلى وجه المنطق فيه فيما بعد ، فقد كان ناس منا لا يرون منطقاً فى تحريم لحم الخنزير فجاءت بينات العلم فى أيامنا هذه فأثبتت حكمة الشارع فى ذلك ، وأهل الغرب الذين كانوا يتعجبون بالأمس من تحريم الخمر أصبحوا اليوم يرون تحريمها ، وقد تبين من رذائلها فوق كل ما كان المسلمون يعرفونه فقد كنا نحن نقول إنها تذهب العقل ، فهام أولاء اليوم يقولون : إنها تذهب العقل والكبد والكلى وكل شىء فى كيان الإنسان .

ومن زمان بعيد جداً قرر الفقهاء - على درجات متفاوتة بينهم - مبدأ الإجماع والمراد هنا إجماع الأمة على رأى من الآراء ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : إن الأمة لا تجتمع

على ضلالة . وقد زعم بعض المستشرقين أن الشرع الإسلامى أخذ هنا أشياء من القانون الرومانى ، وليس هذا بصحيح فما عرف فقهاؤنا الأولون القانون الرومانى ولا سمعوا به ، إنما هم وجدوا أهل البلاد التى دخلت الإسلام تجرى بعض عاداتها بأشياء منطقية لا تتنافى مع أمر من أوامر الإسلام أو نهى من نواهيه فتركوها على حالها ما دامت لا تضر فرداً أو جماعة أو تجرح حشمة . نقول تركوها ولكنهم لم يقروها أو يجعلوا لها تبريراً ومع الزمن يقضى عليها الإسلام إذا لم تعد لها فائدة فى مجتمع إسلامى .

وقد تحرز فقهاء المسلمين أشد التحرز فى تطبيق مبدأ القياس حتى رفضه بعضهم رفضاً تاماً كما نرى عند ابن حزم . وهم محقون فى ذلك على مذهبهم فى التحرز ؛ لأن القياس يسهل اتخاذه ذريعة لتحقيق مآرب أصحاب المصالح ولكن الإمام مالكا عندما قبل مبدأ القياس وضع له من الضوابط ما يجعله أساساً مأموناً من أسس التشريع وقد تبعه بقية الفقهاء فى ذلك عدا أهل الظاهر .

وهنا - فى باب الفقه - نجد أن الفقهاء ساروا فى اتجاه يخالف كل المخالفة طريق المتكلمين ، وقد احترموا الناس ونزلوا إلى دنياهم ونظروا فى مصالحهم واحترموا اهتماماتهم .

الإسلام دين وأمة

من أكبر العيوب التي تشوب كتابات الكثيرين ممن يتعرضون للتأليف في الفقه الإسلامي أن عملهم كله - رغم سعته - قائم على معرفتهم بالإسلام والمسلمين ، والتاريخ عندهم هو تاريخ أمة الإسلام وما عدا ذلك فهم يعرفون عنه القليل ، ومن ثم فهم لا يستطيعون تقدير مكان الفقه الإسلامي قدره الصحيح في الحضارة الإنسانية لأننا لو عرفنا تجارب الأمم غيرنا لزاد فهمنا لتجربتنا ، ولو درسنا الشرائع الأخرى غير الإسلامية لتبين لنا من فضائل شريعة الإسلام وفقهه أضعاف ما نتصور أننا نعرفه وسأضرب لك هنا مثلاً واحداً يغنى عن كثير ، فقد أهدانى الصديق العالم الدكتور عبد الصبور مرزوق كتاباً في الفقه الإسلامي من تأليف الدكتور عباس حسنى أحمد ، والكتاب جيد جداً ، وقد انتفعت به أكبر النفع ولكنى أقرأ فيه العبارة التالية : « هذا ، وما ينبغي التنبيه إليه أن الشريعة الإسلامية ليست كهنتاً محصوراً في فئة قليلة من رجال الدين ، فلا يوجد في الإسلام رجل دين ، وإنما المسلمون جميعاً رجال دين ودنيا ، وطلب العلم فرض على كل مسلم ومسلمة بنص الحديث . فالناس ثلاثة : عالم ومتعلم وهمج رعا » (ص ٤٨) ، ومعظم ما في هذه العبارة صحيح ولكنك تقف طويلاً عند قوله : إن الناس ثلاثة : عالم ومتعلم وهمج رعا .. فمن أين أتى هذا العلامة بأن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف متحاجة متميزة : علماء ومتعلمين وهمج رعا ؟ ومن هم الهمج الرعا ؟ ولماذا يصر بعض أهل العلم عندنا على أن هناك في المجتمع الإسلامي طائفة تسمى بالهمج الرعا ؟ وهل وجدوا في القرآن الكريم ما يوحى بأن من عباده ناساً منبوذين لأنهم همج رعا ؟ وهل اعتبر رسول الله ﷺ نقرأ من معاصريه همجاً رعاً ؟ ثم ألم يكن كبار أعداء الإسلام يقولون : الذين دخلوا في دعوة رسول الله ﷺ همج رعا ؟ ألم يقولوا إن بلال بن رباح ، وخباب بن الأرت ، وعمار بن ياسر همج رعا وأنهم سادات قريش - لا يليق بهم أن يجالسوا هؤلاء الهمج الرعا ؟ ألم تكن من بين الصحابييات اللاتي كان رسول الله ﷺ يكرمهن ويقربهن جارية تسمى زنيرة ، كان أبو جهل يرى أنها من أحط الهمج الرعا وهي عند الله أفضل منه ؟ ثم ألم يعلم صديقنا العلامة أن من أكبر عيوب المجتمع الرومانى التي هدت كيانه آخر الأمر أن سادات الرومان كانوا يرون أنهم طبقة متميزة لها حق الحكم والسيادة هي طبقة الباتريسي

Patricii والفرسان Equesrri ولا يجوز لهم الاختلاط بمن كانوا يسمونهم الهمج الرعاع أو الـ Plebei . ثم الا يذكر أنه كان من أكبر أسباب الثورة الفرنسية أن المجتمع الفرنسي في عصر الملوك قبل الثورة كان يقسم الناس إلى ثلاث طبقات : الملوك ومعهم الأشراف ثم كبار رجال الدين ثم أهل الطبقة الثالثة أو ما يسمى باسم Tiars Etak وأن بداية الثورة كانت عندما أصر رجال مجلس الأمة بأن تزال الفوارق فلا يكون هناك همج رعاع منبوذون يجلسون في قاعة وحدهم ولا يجوز أن يجالسوا رؤساء الناس من الأشراف ورجال الكنيسة ، وعندما سقط الحجاب الحاجز بين طبقات الشعب دخلت فرنسا وأوروبا بعدها في عصر النهضة العظيم .

ثم ألم يقرأ تواريخ علماء هذه الأمة من أيام الصحابة والتابعين وتابعيهم وقادة الفكر في هذه الأمة ليرى أن عددًا عظيمًا ممن شادوا مجد هذه الأمة خرجوا من أولئك الذين يسميهم الهمج الرعاع من أبناء الطحانين القفاصين الدباغين والضرابين الذين يصنعون الطوب من الطين وباعة الماء في المساجد والنجارين والخدم والموالي والرقيق والعتقاء .

فما معنى هذا الترفع والقول بأن من بين أبناء الأمة همجاً رعاعاً ، وإذا كان هناك همج رعاع أفليس من واجب الذين يرون أنفسهم علماء ومتعلمين أن يعملوا على ألا تكون هناك جماعات منبوذة مستبعدة توصف بأنها همج رعاع ؟ وهل كان لا بد أن ننتظر حتى يعلمنا أهل الغرب أنه لا ينبغي أن يحرم من العلم أحد يستحقه ويطلبه ، وأن من واجب الدولة - أي الجماعة - أن تفتح أبواب العلم للراغبين فيه المؤهلين لطلبه بل إن عليها أن توقع العقوبة على من يقصر في تعليم أولاده ؛ لأن هذا التقصير في ذاته مضرة بالأمة ؟

ومما يستوقف النظر في ذلك الكتاب القيم تفسيره لقول الله سبحانه وتعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (النساء ٣٤/٤) . بأن الرجال عموماً أعلى درجة من النساء عموماً ، لأن الرجال يُحَكِّمُونَ العقل أما النساء فتغلب عليهن العاطفة وأنا في هذه الدراسة لا أعتد على النصوص بقدر ما أعتد على الواقع التاريخي ، والواقع التاريخي يقول إنه لا فارق في العقل أو الذكاء أو الدين أو الانسياق مع العاطفة بين الرجال عامة والنساء عامة .

وأنا أنظر في سيرة رسول الله ﷺ فلا أجد من قوله وفعله أنه يرى الرجال عامة أعقل من النساء عامة ، ثم يقولون لك إن رسول الله ﷺ قال : إن النساء ناقصات عقل ودين ، ولا أجد من سيرة النبي ﷺ ما يدل على ذلك ، وكيف يقول الرسول إن النساء ناقصات عقل ودين ، وخديجة أم المؤمنين آمنت به وثبتت فؤاده حتى قبل أن يطمئن هو إلى حقيقة ما يسمع ويحس ؟ ولم يكن إيمانها به عاطفة بل عقلاً ، فهي لم تقل له إنني واثقة من أن الذي يأتيك خير لأنني زوجتك وأحبك ، بل قالت : كلا والله ، ما يخزيك الله أبداً . وإنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق .. وهذا كله كلام عقل ومنطق وحكمة ثم أشارت عليه بعد ذلك بالرأى السليم وهو أن تسأل في الأمر ابن عمها ورقة بن نوفل ؛ لأنه يقرأ الكتب المقدسة ويفهم في تلك الأمور ، ثم إنني أنظر فأرى أن رسول الله ﷺ كان يستشير زوجته أم المؤمنين أم سلمة فتشير عليه بالرأى فيأخذ به ، وأراه يثق في عقل عائشة أم المؤمنين ودينها ويأمرنا بأن نأخذ العلم بالدين من عائشة رضى الله عنها وأجده يثنى على أم عمارة الأنصارية ، ويثنى على أسماء بنت عميس الخثعمية وغيرهن كثير ، وأمامك الجزء الثامن من طبقات ابن سعد عن الصحابييات والتابعيات فتجد من إيمانهن وعقلهن وحسن صوابهن ما لا يقل عن الرجال ، وحتى لو ذهبنا مذهب من يقولون إن رسول الله قال : إن النساء ناقصات عقل ودين فهل قال الرسول ﷺ إن الرجال كوامل عقلاً وديناً ؟

إنما هي مذاهب ذهبوا إليها وتداولوها دون تدبر وثبتوا عليها وعطلوا بها الإفادة من ملكات النساء وهن نصف الأمة ، وهذا الذي أقوله لا يتنافى مع ضرورة التزام المرأة للسمت والحشمة وعدم إبداء الزينة فهذا أساسى وهو في ذاته دليل على حمق الرجل وعدم سيطرته على غرائزه . فالمرأة إذ تحتشم وتقتصر في الخروج والضرب في الطرقات إنما تحمى نفسها من الرجل فصيانة المرأة لنفسها تكريم لذاتها وليست بحال دليلاً على أنها ضعيفة العقل أو أكثر من الرجل تعرضاً للفتنة والخطيئة ، ولو أحصينا ما أصاب البشرية من أخطاء الرجال وردائهم لزادت أضعافاً على ما أصاب الدنيا من أخطاء النساء وإنما هبط مستوى المرأة عندنا ؛ لأننا فرضنا عليها تصورنا الرجالي لنظام المجتمع وابتذلنا المرأة وعدونا عليها وغسلنا مخها حتى أصبحت المسكينة ترى نفسها فعلاً أدنى من الرجل .

ومن سخرية القدر بالذين يستطردون مع الحط من شأن المرأة أن التى غلبت رجالنا وأتمت إخراج بقايانا من الأندلس كانت امرأة أمنت بدينها أكثر مما آمن رجالنا بدينهم ، وفي عالمنا الراهن نساء يحكمن شعوبهن بأعقل وأحزم مما يحكم الرجال .

وهذا الكلام أقوله لأننى أجد أن هناك فى تفكيرنا قضايا مُسلمات كان ينبغى أن نعيد النظر فيها لكى نسير فى أمرنا دائماً على عقل وبصيرة لأن الشريعة سمحة واضحة الحكمة ، والذين استخرجوا لنا أحكام الشريعة من القرآن والسنة كانوا رجالاً عظماء حقاً ، عرفوا كيف يضعون كل شىء مكانه فهم لم يحقروا المرأة أو أساءوا الظن بها دون أن يخالفوا أمراً من أوامر الله ، وإذا كانوا قد أعطوا المرأة نصف الرجل فى الميراث فذلك أمر من أوامر الله وأوامر الله لا تناقش ، ثم إنه قسم أموال وموارث قررها الخالق سبحانه وتعالى لحكم اجتماعية واقتصادية هو أعلم بها سبحانه وهو أمر لا ينطوى على أى اتهام لعقل المرأة أو كفايتها ، وأنا فى هذا كله أسير على هدى القرآن وسنة المصطفى صلوات الله عليه .

ونحن الآن نتحدث عن فقهاء الإسلام وما بذلوه من جهد فى صياغة أحكام الشريعة صياغة عمل وتطبيق ، فأجد فى أولئك الرجال البناء الحقيقيين لمجتمع الإسلام فقد اجتهدوا فى صيانة الحقوق والنفوس وأظهروا ذكاء بعيداً فى فهم آيات القرآن ، ووضعوا أسساً علمية باللغة الدقيقة فى بناء صرح علم الحديث ، وانظر مثلاً إلى ما تميز به السفينانيان الثورى وابن عيينة من العقل والدقة والإخلاص والعمل الدءوب الصادق فى بناء قاعدة الشريعة دون خوف من حاكم ، وتحضرنى هنا الحكاية التى يرويها ابن خلكان عن مروج الذهب للمسعودى فى كلامه عن سفيان الثورى وهو عربى أصيل من بنى عبد مناة بن كنانة : قال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدي (الخليفة العباسى الثالث) وأتى سفيان الثورى فلما دخل عليه سلم تسليم العامة ، ولم يسلم بالخلافة (أى أنه سلم السلام الذى يحيى به كل الناس) والربيع (بن يونس الوزير) قائم على رأسه متكئاً على سيفه يرقب أمره ، فأقبل عليه المهدي (الخليفة) بوجه طلق وقال له سفيان : تفر منا ها هنا وها هنا وتظن أننا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك فقد قدرنا عليك الآن ، أفما تخشى أن نحكم فىك بهوانا ؟ قال سفيان : إن تحكمت فىي حكم فىك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل ، قال له الربيع : يا أمير المؤمنين : ألهذا الجاهل أن

يستقبلك بمثل هذا؟ إذن لى أن أضرب عنقه فقال المهدي: أسكت ويك هل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على الا يعترض عليه فى حكم . فكتب عهده ودفق إليه فأخذه وخرج فرمى به فى دجلة ، هرب فطلب فى كل بلد فلم يوجد ولما امتنع عن قضاء الكوفة وتولاه شريك بن عبد الله النخعى قال الشاعر :

تحرز سفيان وفر بدينه وأمسى شريك مرصداً للدرهم

(ابن خلكان ٢ / ١٢٧ - ١٢٨)

فأنت ترى هنا أن الوزير الربيع بن يونس يصف سفيان الثورى بأنه جاهل ، وسفيان كان من أعلم أهل زمانه وهذه ملاحظة أهدبها للذين يقسمون أمة الإسلام إلى علماء ومتعلمين وجهلة ورعاع وأقول : من أين أتيت بهذا التقسيم ؟ وهل أضرب بامتنا شىء مثل ترفعنا بعضنا على بعض ، واتهامنا بعضنا بالجهل وعدم ثقة بعضنا فى بعض ، وكل ذلك أضرب بوحدة الأمة وأوجد فروقاً خطيرة بين طبقاتها وخرجنا فى هذه الناحية عن نهج الإسلام .

ثم تأمل نكاه الخليفة المهدي الذى أدرك أنه إذا أقدم على قتل رجل مثل سفيان الثورى ؛ لأصبح سفيان شهيداً سعيداً بشهادته ولهز مقتله عرش بنى العباس كما هز دولة بنى أمية من أساسها مقتل الحسين رضى الله عنه ، فكان الحسين الشهيد أقوى من الحسين طالب الخلافة ، وانظر إلى سفيان الثورى وهو لا يعترف بخلافة المهدي فهو يسلم عليه دون لقب الخلافة ، وعلى أكتاف رجال من أمثال فقهاء المدينة السبعة وسفيان الثورى وسفيان بن عيينة ومحمد بن سيرين والطيث بن سعد وعبد الرحمن الأوزاعى والأئمة الأربعة وغيرهم كثيرون جداً قامت الدعائم الحقيقية لأمة الإسلام وقد كانوا يستطيعون أن يفعلوا أكثر مما فعلوا لولا الأثر السىء الذى كان للسياسة وأهلها فى تطور هذه الأمة ، وأنا من أكثر الناس اعجاباً بمالك بن أنس ولكنى أقول : أن مالكا أنكر شرعية الخلافة العباسية إنكاراً ضمنياً أو مستوراً فقال : ليس على مستكره طلاق أى أن الذى يرغم على تطليق امرأته لا يصح طلاقه ، وهو يريد أن يقول : إن بيعة أبى العباس السفاح ، وأبى جعفر المنصور جاءت على طريق الإرغام والخوف فهى بيعة غير صحيحة وباطلة ، ولو أنه قال صراحة أن بيعة بنى العباس غير شرعية لقتلوه

ولكن مقتله كان سيزعزع بنيان دولة بنى العباس ويهدم بنيان الظلم ويحرك عواطف الأمة ويقيم الثورة على الطغيان ويعيد إلى الأمة حقوقها في أن تحكم نفسها حكمًا شورياً عادلاً على النحو الذى ترضاه ، وهذا النحو يرضى عنه الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الأمة لا تجمع على ضلالة ، ثم إن حكم الجماعة أيا كان أسلم من حكم الفرد وأقربه إلى العدل والأخلاق والصلاح وروح الإسلام ، ولكن مالكا لم يفعل ذلك وعاش ليتم بناء القاعدة القانونية لبناء الأمة على ما سنراه .

وقد كان أحكم أهل الفقه في النصف الثانى من القرن الهجرى الثانى — الثامن الميلادى ، هو الإمام جعفر الصادق فقد بلغ هذا الرجل من سعة العلم ودقة الفهم ما يجعله فعلاً من أعظم مفكرى الإسلام وفقهائهم ، فقد عاش في عصر اشتدت تقاتل الناس فيه على الخلافة ، أما هو — وكان أوّل أهل زمانه بخلافة المسلمين فقد رأى أن الخلافة الرشيدة لا يمكن أن تستقيم بغير أمة رشيدة ، لأن الصحيح هو أن ترشد الأمة أولاً فترشد الخلافة نتيجة لذلك ، والخلفاء الراشدون كانوا راشدين لأن الأمة في أيامهم كانت رشيدة ، أما وقد تقسمت الأمة في أواخر العصر الراشدى شيعاً وأحزاباً وحكم فيها دعى دخيل لا يعرف أحد من هو أو من أين أتى ؟ وهو أبو مسلم الخراسانى ، فلعب بالناس لعباً وتآمر مع صعلوك سياسى هو إبراهيم الإمام بن على بن عبد الله بن عباس وعبث بعقول العرب وضرب بعضهم ببعض وساق الإمامة إلى أبى العباس السفاح ، والسفاح خاض بحرًا من الدماء ليصل إلى الخلافة ، إذا كان هذا كله قد حدث فقد تلاشى الأمل في صلاح الدنيا ولم يبق إلا صلاح الدين ، وعلى الدين الصالح تقوم الأمة الصالحة والقيادة الرشيدة ، ولهذا فعندما وصلت الإمام جعفر الصادق رسالة من أبى سلمة الخلال مدير أمر الثورة على بنى أمية (حتى كان يلقب بوزير آل محمد) قام فأحرق الرسالة علناً أمام الناس ليروا زهده في الخلافة وهو لم يزهدها ؛ لأنه كان يشعر أنه غير صالح لها ، بل لأنه كان واثقاً من أنه لا يستطيع أن يكون خليفة راشداً إذا كان وصوله إلى الخلافة يتم بمؤامرة دنيئة كتلك التى دبرها أبو مسلم بالكذب الخداع والدس بين الناس وإزهاق الأرواح . رفض الخلافة وفضل أن يظل عالماً ، وحسناً فعل وهو بموقفه هذا قرر حقيقة ستزداد مع الأيام تأكيداً ، وهى أن إمام الناس حقاً هو أعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وأن الدولة التى يتبادلها الظلمة بعضهم مع بعض إنما هى عرض زائل .

ولكى أدلك على صلاح هذا الرجل وصدق فهمه للإسلام أشير إلى ما جرى من الحديث بينه وبين الفقيه عمرو بن عبيد ، وكان أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب متكلمًا زاهدًا فقيهاً (ت. حوالى ١٤٤ هـ) وكان صديقًا للإمام جعفر الصادق فسأله يومًا ما هي الكبائر ، واشترط عليه أن يكون حكمه على كل كبيرة قائمًا على بينة صريحة من القرآن الكريم ، فرد عليه الإمام جعفر ردًا بالغ الحكمة وحدد الكبائر كما يلي على الترتيب ، وقد أردف كل واحدة بالبينة القرآنية عليها مما لا يتسع المجال هنا لإيراده وهي : الشرك بالله ، والياس من رحمة الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وقذف المحصنات وأكل الربا والفرار يوم الزحف ، واليمين الغموس (أى التى يحلفها الرجل كاذبًا وهو يعرف أنه كاذب فيغمس نفسه فى النار) وشرب الخمر ، والغلول (إخفاء شىء من الغنيمة وانفراد الرجل به فلا يدخل فيما يقسم من الغنائم ، والمراد هنا سرقة مال الجماعة الإسلامية أياً كان وهو خيانة للأمة .. يعدها جعفر الصادق كبيرة) وشهادة الزور ومنع الزكاة (لأنها حق المسلم غير القادر على أخيه القادر) وترك الصلاة ونقض العهد ، وقطيعة الرحم ، وإذا أنت تأملت هذه الجرائم التى يعدها الإسلام على مذهب جعفر الصادق كبائر وجدت فيها جماع قواعد صلاح أمر المسلمين كله ، فإذا صلح أمر المسلمين صلحت إمامتهم ، وإمامتهم لا تقوم إلا على الشورى ، أى تشاور بين الأمة التى أمرنا الله أن نختارها من بيننا لتدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فكان من نكد الدنيا أن الذى صنع للمسلمين خلافتهم العباسية هذا الأفاق المجهول الدخيل أبو مسلم الخراسانى الذى لا نعرف حتى حقيقة اسمه بالاشترك مع وصولى سياسى مزور هو إبراهيم الملقب بالإمام بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فكيف تصلح للناس هذه الإمامة وهذا حالها ؟ وكيف يقبل الإمامة جعفر الصادق من يد قوم من هذا الطراز ؟

وبمناسبة عمرو بن عبيد الذى ذكرناه نروى الخبر التالى الذى يذكره ابن خلكان فى ترجمته وهو خبر عظيم الدلالة على انفصال الأمة عن الدولة فى ذلك العصر ، فقد كان والد عمرو يخلف أصحاب الشرط بالبصرة (أى وكيلاً لصاحب الشرطة) فكان الناس إذا رأوا عمراً مع أبيه قالوا : هذا خير الناس ابن شر الناس ، فيقول أبوه : صدقوا ! هذا إبراهيم وأنا « أزر » (وفيات ٣ / ١٢٠) فتأمل كيف كان الناس يرون رجال الشرطة - والمفروض أنهم رجال الأمن وحماة الأنفس والأموال شر الناس (لأنهم كانوا خدم

(الدولة) حتى والد عمرو أقرهم على ذلك ، وقال لهم إن عمراً ابنه هو إبراهيم عليه السلام نبي الله . وأما أبوه فهو أزر والد سيدنا إبراهيم وكان كافراً !

ومما يروع النفس في أمر التشريع الإسلامي الذي استخرجه الفقهاء الأول من الأصول الإسلامية الخالصة وهي القرآن والسنة ثم الإجماع والقياس أنها بنيت على أدق الأساليب العلمية التي عرفها أهل العلم في الشرق والغرب على السواء إلى يومنا هذا وهي الدقة التامة والاعتماد في العمل على المادة السليمة المصفاة أدق تصفية ومراعاة الضمير وصالح الناس وسلامة المجتمع والضمير في القرآن الكريم يعبر عنه بالقلب في كثير من الآيات في مثل قوله تعالى في سورة الشعراء في دعاء إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَلَا تَخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٨٧ / ٢٦ - ٨٩) وقال في سورة البقرة : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ * وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمَ قَلْبُهُ ﴾ (٢ / ٢٨٣) وانظر إلى الدقة العلمية وخلوص النية والضمير التي اتباعتها أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م) في تأليف جامع الصحيح الذي يعتبره الفقهاء أصح كتاب بعد القرآن الكريم .

فقد تطوع هذا الرجل بجمع كل ما تيسر له من الحديث الصحيح المروي عن رسول الله ﷺ كل حديث بسنده حتى لا يدخل في حديث رسول الله زيف ، فوضع لنفسه شروطاً بالغة الدقة والعسر ، منها أنه لا يأخذ الحديث إلا عن راووه أو رواه أنفسم مهما بعدت بلادهم وإن كان للحديث الواحد أكثر من سلسلة إسناد أتى بسلاسل الإسناد كلها وإن اتفقت في نص الحديث . أو اختلفت النصوص بعضها عن بعض في كلمة أو حرف وكلف نفسه القيام برحلات طويلة في بلاد الإسلام فإذا كان رواة الحديث الواحد عشرة متفرقين في شتى الأمصار لم يتردد في الذهاب إلى كل واحد منهم في بلده لسماع الحديث منه والاستيثاق من سنده قبل أن يكتبه ولم يكن يثبت حديثاً إلا إذا استوثق من أمانة صاحبه وسلامة ضميره . وكثيراً ما رحل مئات الأميال ليسمع حديثاً من رجل ، ثم لم يطمئن إليه قلبه فتركه ، وفي هذا العمل المضمن أنفق ست عشرة سنة ، رحل فيها من بغداد إلى خراسان والجزيرة في شمال العراق والشام ومصر والحجاز ، ثم جمع أحاديثه ورتبها أبواباً وراجعها مع العلماء حديثاً حديثاً ، وكان إلى جانب دقته وتقاه واسع الذكاء فقد اختبره العلماء ، بعد فراغه من صحيحه أعسر

الاختبار قبل أن يسلموا بسلامة ما أثبتته في كتابه ، وبلغ من تقدير الناس إياه أن الإمام مسلم صاحب الجامع الصحيح كان كلما دخل على البخارى قال : دعنى أقبل رجلك يا طيب الحديث ويا سيد المحدثين . وكان البخارى يحفظ في شبابه وقبل أن يقوم برحلاته سبعين ألف حديث ، فما زال يفحصها ويراجعها مع الرواة والعلماء حتى ترك معظمها ولم يثبت في صحيحه إلا نحو عشرين . وهذا مذهبه في التحرى والتدقيق وتكلف الضبط العلمى لم نسمع بمثله في أى ثقافة أخرى خارج نطاق الإسلام .

ولم يكن أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري صاحب الجامع الصحيح بأقل دقة أو أضعف منهجًا من البخارى ، فقد تجرد هو أيضًا لجمع الحديث وقضى عمره كله في جمعه على منهج علمى خاص به بيّنه في فاتحة صحيحة ، وكما فعل البخارى فقد جاب مسلم بلاد الشام في طلب الحديث وتدوينه وقد أقاد من عمل البخارى لأن زمانه تأخر عنه ، فقد عاش فيما بين سنتى ٢٠٦ و ٢٥٦ هـ (٨٢١ - ٨٧٠ م) وقد كان باراً بالبخارى وعندما تعرض البخارى لعداوة عدد كبير من الناس وقاطعوه كان مسلم من أوفى الناس لأستاذه وقد سمع مسلم عن أحمد بن حنبل ، ابن حنبل كان إمامًا من أئمة الحديث إلى جانب ملكته الفقهية التشريعية العظيمة . وسمع أيضًا عن إسحاق بن راهوية ويحيى بن يحيى النيسابورى وهؤلاء جميعًا من أبناء مدرسة الحديث الكبرى التى لم تكتف بالجمع والتدوين . بل تطرقت إلى المقارنة والاهتمام بالمتن أبلغ اهتمام .

وهذان الشيخان الجليلان يعتبران على رأس قائمة واضعى المنهج العلمى فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، فلم يسبق أن وضع رجل من أهل العلم مثل هذا المعيار الدقيق للعمل العلمى .

ومن عجب أننا نحن المسلمين - نتعلم المنهج والدقة والضبط من علماء أهل الغرب وننسى أن مقياس العلم الصحيحة كلها وضعها أسلافنا ، وكان علينا أن نسير على خطاهم لتظل لنا صدارة العلم فى الدنيا ، ولكننا هنا - على عهدنا فى كل أمورنا - نضيع الكنوز التى بين أيدينا تضيع السفيه الذى ينفق ما تركه له أبوه ثم يمضى بقية عمره يتسول ويتكفف الناس .

وهذا مثل مما كان عليه أهل العلم من أجدادنا فى الضبط والدقة والصبر وإليك

مثلاً آخر مما كانوا عليه في دقة العمل وضبطه فجمعوا بين الدقة والضبط والصبر في العلم والعمل ، والمثل آتيك به من سيرة عمر رضى الله عنه فقد كتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو في طريقه إلى القادسية يقول : أما بعد ، فتعاهد قلبك ، وجادث جندك بالموعظة والنية الحسنة . ومن غفل فليحدثهما .. والصبر ! الصبر ! فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية . والأجر على قدر الحسنة . والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله واسألوا الله العافية وأكثروا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله : واكتب إلى ابن بلغ جمعهم . ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم فقد منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجتم عليه ، والذى استقر عليه أمر عدوكم . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفه كائى أنظر إليه .

واجعلنى من أمركم على الجلية . وخف الله وارجه ولا تدل بشىء (لا تغتر بشىء) واعلم أن الله وعدكم وتوكل بهذا الأمر ما لا خلف له . فاحذر أن تصرفه عنك فيستبدل بكم غيركم ..

فانظر إلى دقة عمر رضى الله عنه ، وحسن فهمه للأمر فهو يطالب قائده بأن يصف له موقعه ومواقع الأعداء وصفاً يجعله كأنه ينظر إليها .. وانظر إلى صدق معرفته بالإسلام ومنهجه فهو يقول لسعد : إن الله وعد هذه الأمة النصر وتكفل لها بذلك ما دامت تسير في الطريق السليم فإذا خرجت عنه انصرف عنها واستبدل بها غيرها .

والعلماء الذين ضربت لك مثلاً من التزامهم المنهج رسموا للأمة طريق العلم ، ورسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وضعوا لها أساس العمل . فأما أهل السياسة فقد انحرفوا عن المنهج انحرافاً بالغاً فانصرف الله عنهم وضاعوا ، وأما بقية الأمة فقد لزمتم المنهج وسارت في الطريق النبوى العمرى وعلى رأسها العلماء والفقهاء فحفظها الله ؛ لأن الإسلام دين وأمة ، لأن الدين باقى والأمة باقية ، وأما الدولة فقد دالت وذهبت بها رياح الزمان مرة بعد أخرى .

الطَّرِيقُ إِلَى الْمُوَطَّأِ

لا بد لي — بين يدي هذا الحديث — أن أقرر أنني لن أتطرق إلى الحديث في الفقه في هذه الفصول ، فلست من أهل الفقه ، ولن يبلغ بي الجهل أن أدخل فيما ليس من شأني وأقتحم على أهل الفقه ميدانهم ، فلكل رجل منا مكانه وحدوده ، ولا يجمل بالرجل الذي يصون نفسه عن الخطأ أن يتعدى حدوده ، ويتناول إلى ما لا يحسنه . إنما أنا مؤرخ التزم حدود علمي في كل ما أكتب ، وكيف أذن لنفسي في ذلك وفي الأمة والحمد لله من أجلاء أهل الفقه والدين والعلم والتصاون من يزهو بهم عصرنا ، ويصان بهم ديننا ، وكيف يسوغ لي أن أتكلم في الفقه ومن حولي شيوخ أعظم من طبقة جاد الحق على جاد الحق ومحمد متولى الشعراوى وأحمد حسن الباقورى والسعدى فرهود ومحمد الطيب النجار وعبد العزيز عيسى وعبد الجليل عيسى وزكريا البرى وعبد المنعم النمر وأضرابهم وأهل طبقتهم ممن تخوننى ذاكرتى الآن عن ذكرهم ، وهذا في مصر وحدها ، فما بالك بمن تضمه بقية بلاد الإسلام من جلة العلماء .

ولا يفوتنى أبداً وأنا أكتب هنا أنني أعيش في عصر نهضة ثقافية كبرى ، دعا إليها وأقامها رجال من أمثال محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد بن عبد الوهاب وعبد الحميد بن باديس وعلال الفاسى ومحمد بن على السنوسى وحسن البنا وسيد قطب وعبد الأعلى المودودى وسليمان الندوى ومالك بن نبي وعلى عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق ومصطفى المراغى ومحمود شلتوت ومحمد أبو زهرة وعبد الحلیم محمود وإبراهيم الوزير والشيخ الباز والشيخ المحمودى وغيرهم وغيرهم ، ومعذرة إذا كنت قد خلطت في الترتيب فالحق أننا لا نملك دليلاً بالتواريخ الخاصة بعصرنا ؛ لأننا قصرنا فيما حرص عليه أسلافنا من التأليف في الرجال مع أننا اليوم في أشد الحاجة إلى ذلك ؛ لان عصرنا كما قلت عصر نهضة فكرية فقهية إسلامية كبرى جديدة بأن يؤرخ لها ، ولابد أن تؤلف في أهلها كتب طبقات .

وإنما عملي هنا هو عمل المؤرخ أى إضافة البعد الزمنى إلى عملية بناء الفقه الإسلامى الجلية لأننا - مثلاً - نؤلف الكثير عن مالك بن أنس ونعظم قدره ونمجد عمله العلمى العظيم ولكننا لا نتنبه إلى الطريق الطويل الذى قطعه مالك ليستطيع أن يبنى

مذهبه العظيم . فابن خلكان مثلاً عندما يتحدث عن مالك يصوره لنا وهو في قمة مجده عندما أصبح إمام دار الهجرة وأتم تأليف موطنه الذى بسط فيه مذهبه ، ولكنه لا يحدثنا عن الطريق الطويل الذى سار فيه بناء الفقه الإسلامى قبل مالك ، ولا يذكر لنا عظماء الرجال الذين مهدوا الطريق إلى مالك ثم إنه لا يتنبه إلى عبقرية هذا الرجل الذى عرف على طول سبعين سنة ونيف من الجهد المتصل كيف يضع تشريعاً كاملاً قائماً على الكتاب والسنة والإجماع والقياس يشمل كل فروع القانون من العبادات إلى النكاح (الأحوال الشخصية) والمعاملات (القانون التجارى) والحدود (قانون العقوبات) والجراحات (القانون الجنائى) وهو عمل ضخم لا يصدق ؛ لأن الرومان مثلاً احتاجوا إلى سبعة أو ثمانية قرون لوضع قوانينهم التى طالما يتحدث عنها مؤرخو الحضارة ، فقد بدأ تدوين القانون الرومانى فى عصر الملوك قبل الميلاد بأربعة قرون ، ولم يفرغوا منه إلى عصر جستينيان الذى كتبت فيه مدونة جستينيان فيما بين سنتى ٥٢٧ و ٥٦٥ ميلادية ، وأين القانون الرومانى من المجموعة القانونية التى يتضمنها موطأ مالك !

إن بعض أبواب الفقه الإسلامى على مذهب مالك (وغيره من الأئمة) لم تدخل الفقه الرومانى إلا فى عصر جستينيان مثل : حقوق اليتامى والصغار وحقوق المرأة وما ينبغى للشيوخ والمرضى من الرعاية .

وإذا أنت تأملت عمل مالك من هذه الزاوية ازداد تقديرك له وإعجابك بعمله وجهده وازداد فى نفس الوقت إيمانك بالإسلام الذى وضع للناس قاعدة ذلك الميزان الرائع للعدالة .

وأضرب لك مثلاً آخر يعينك على التعرف على الزاوية التى أنظر منها ، والبعد التاريخى الذى أضيفه إلى دراسات الفقه عندنا فإن رسول الله ﷺ قال : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله وسنتى » وهو حديث ثابت متفق عليه وقوله حق لا شك فيه . وأنا هنا أحاول أن أؤرخ للسنة ، ثم دعنا نسأل الآن : أين كان كتاب الله وسنة نبيه الكريم يوم انتقل إلى الرفيق الأعلى ؟ فأما القرآن فقد كان بعد مفرقاً فى صدور الرجال ومدوناً على العظام والجلود والأخشاب والفخار وكان لا بد من جمعه وتثبيت نصه حتى يستطيع الناس الرجوع إليه وهذا العمل تم والحمد لله خلال أيام أبى بكر وعمر وعثمان ، وهذا فى ذاته كان عملاً عظيماً يرتبط بذكر جماعة من

أعلام العلم في هذه الأمة على رأسهم زيد بن ثابت النجاري الأنصاري وهو أول عالم منهجى في تاريخ الإسلام ، فهو الذى نظم عمل الجماعة التى قامت بجمع القرآن وتدوينه في صحف وأنشأ أول مصحف ، وكان زيد ذكياً دقيقاً دخل في خدمة الرسول في سن باكورة ولم يحضر بدرًا ولا أحدًا ؛ لأن سنه كانت تحت سن القتال ، ولكن الرسول ﷺ أحبه وقربه واتخذته كاتباً لأنه كان يجيد القراءة والكتابة وتعلم فيما بعد العبرانية والسريانية وصار يكتب ويقرأ فيهما وكان يحسن الحساب حتى قال فيه الرسول ﷺ : « وأفرضكم زيد » أى أنه كان أقدر الصحابة على قسم الغنائم وحساب أنصبة المواريث ، وقد عاونه في جمع القرآن وإنشاء المصحف عبد الله بن مسعود وأبى ابن كعب والمقداد بن الأسود وأبو موسى الأشعري وبذل الخمسة جهداً عظيماً في الجمع والمقابلة والترتيب والمراجعة ، وقدموا إلينا بذلك أجل خدمة قدمت للإسلام وقد تمت أيام عثمان ونسب إليه المصحف الثابت النص وهو العثماني وأعدم ما دون ذلك ولم يبق من القراءات المخالفة (في الألفاظ أو شكل حروف) إلا شىء قليل نجده منسوباً إلى أبى بن كعب وعبد الله بن مسعود في كتاب مثل الإتيان للسيوطى ، وتوفى زيد بن ثابت سنة ٥٦ هـ في الغالب .

وهذا هو كتاب الله قد جُمع وحُفظ ، وصدق الله سبحانه وتعالى عندما قال في سورة القيامة : ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّعَلَّجَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (٧٥ / ١٦ ، ١٧) وقوله في سورة الحجر ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٥ / ٩) .

ثبت نص القرآن ودُوِّنَ بالكلمة والحرف ولم يعد هناك مجال للشك فيه ، وستجىء بعد ذلك مشاكل التفسير والتأويل ولكن هذه مسائل أخرى لم يجىء بعد أو أنها وخاصة في آيات الأحكام وهى لا تحتمل الكثير من الاختلاف .

وبقيت مسألة الحديث ، فإن الحديث هو كل ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو استحسان أو استهجان . حتى صمت رسول الله ﷺ عن الشىء يعد حديثاً ويمكن اتخاذه سنة ، فإذا شهد رسول الله ﷺ تصرفاً أو رأى شيئاً فسكت عنه اعتبر ذلك إقراراً .

فأين كان الحديث وأين كانت السنة عندما توفى رسول الله ؟

لقد عاش رسول الله ﷺ وتكلم وتصرف وسط ألوف من الناس وكان في الذين حوله ناس حفظة ودعاة ، وناس لا يحفظون ما يسمعون بنصه أو بما يقرب من نصه ولا يعونه الوعي الكافي ، وكان هناك ناس متيقظون إلى أن كل حديث للرسول ﷺ سيصبح سنة للمسلمين فلا بد من حفظه بنصه ، وناس لم يفتنوا لذلك بل كان هناك ناس لا يظنون أن رسول الله ﷺ سيموت وأن الناس سيسترشدون بعد موته بسنته ولم يكد الرسول ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى تبينت أهمية السنة ، وفي اجتماع السقيفة مثلاً برزت مسألة الإمامة أو خلافة الرسول وقال أبو بكر : إن رسول الله ﷺ قال « الأئمة من قريش » وهو حديث لم تثبت فيما بعد صحته ، وكان مثار خلافات سياسية ومذهبية حادة بين المسلمين فيما بعد .

وفي الصراع السياسى والاجتماعى الذى أخذ يشتد بعد ذلك أخذت أهمية السنة تتجلى واحتاج الناس إليها في كل كبيرة وصغيرة ولكن أين هى ! إنها في صدور الرجال ، ألوف الرجال الذين عاشوا حول الرسول ﷺ وبعضهم كان أشد التصاقاً به أو قرباً منه من غيرهم فأتاحت له الفرصة لسمع ويرى من حديث الرسول ﷺ أكثر من غيره ، ومنهم من تنبه إلى أهمية السنة فهو يحفظ ما يرى .

وبعد وفاة الرسول ﷺ تنبه المسلمون جميعاً إلى خطورة السنة فبدأ كل منهم يتذكر ما رأى وسمع ، وبعضهم تذكر جيداً وبعضهم الآخر اختلط عليه الأمر فروى ما سمع على قدر ما استطاع ، والكثيرون أرادوا أن يكون لهم مركز ومقام فزعم أنه سمع أحاديث ورأى سنة وفجأة وجد المسلمون أنفسهم أمام أمواج بعد أمواج من الأحاديث التى سميت أيضاً بالآثار أو الأثر ، فما الصحيح في هذا كله وما هو غير الصحيح ، وما الدقيق وما غير الدقيق أو ما هو المكذوب ؟

هنا بدأ ما يمكن أن نسميه سباق الحديث ولا بد أن نفترض أنه كان هناك أهل الصدق ، وهناك أيضاً أهل الكذب ، وهناك أصحاب النية الحسنة ، وهناك أصحاب النية السيئة ، ثم إن الفتوح الإسلامية سارت بسرعة لم تكن تخطر ببال أحد وانتشر العرب واستقرت أعداد منهم في البلاد المفتوحة التى عرفت بالأمصار أو المهاجر ، وفي كل مصر استقر عدد من الصحابة ومن بين الصحابة والتابعين في كل مصر ظهر ناس يحفظون أحاديث أو زعموا أنهم من أهل الحديث والأثر ، وهؤلاء أصبحت لهم مكانة ظاهرة في الأمصار وبعضهم حدّث بما عنده وبعضهم أفتى على قدر ما استطاع .

ومن مشاكل التاريخ الإسلامى وصعوباته أن كل الأشياء وقعت في نفس الوقت وبسرعة خاطفة : الفتوح ، والهجرات ، وقيام الدولة والحاجة إلى التشريع وظهور المحدثين وأهل الأثر وأهل الفتيا ، ثم إن أهل البلاد المفتوحة أخذوا يدخلون الإسلام جماعات ضخمة وصدورهم ملأى بالأمل في العدل والكرامة الإنسانية والرخاء والأمان والسلام وكل ما بشر به القرآن ورسوله الكريم ، وكل هؤلاء المسلمين الجدد كانوا معجلين يريدون أن تتحقق كل الآمال التي كانت حبيسة في صدورهم في عصور الظلم والفوضى والاستغلال التي عاشوها قبل الإسلام وتطلعوا جميعاً إلى العرب ، والعرب أنفسهم لم يكن لديهم ثابت موثوق فيه إلا نص القرآن ، أما السنة فلم تكن قد دونت بعد فكيف يحكمون في القضايا التي كانت تطرح عليهم وليست لديهم العدة الكاملة للحكم ، ثم إن المشاكل التي واجهتهم كانت من كل حجم ونوع ، فهناك قضايا التنظيم الكبرى وهناك القضايا اليومية من نزاعات مالية وقضايا أحوال شخصية وموارث وديون وزروع وتجارات وأموال ، فكيف يحكم العرب في ذلك كله وليس لديهم الشرع المفصل أو القانون الذي يمكن تطبيقه .

ثم إن العرب كانت لهم مشاكلهم الكبرى في حركة الدولة وفي الأمصار ، هناك المشكلة السياسية الكبرى وهي مشكلة الإمامة أى الخلافة ، وهي لم تحل الحل السليم ونشأت عن ذلك فتن وحروب بلا نهاية ، وهناك مشاكل العصبية العربية القديمة أى التي ورثوها من العصر الجاهلى ، والجديدة التى ظهرت بعد الإسلام وقيام الدولة مثل الصراع المرير بين اليمينية الكلبية والشامية القيسية وكل هذه المشاكل الجسام كان لا بد لها من حلول والحلول تحتاج إلى وقت ولكن الناس متعجلون والصبر قليل .

وهذه القضايا والمشاكل كلها كانت سبباً في ظهور أحاديث منسوبة إلى الرسول لأن الأحاديث أصبحت سلاحاً في حروب السياسة وفتن العصبية ومنافسات الأقاليم ؛ فالمسلمون الجدد في العراق يروون أحاديث في فضل العراق ، وأهل الشام تظهر فيهم أحاديث في فضائل الشام ، وأهل مصر يتداولون أحاديث في فضائل مصر ، والوصاة بالقبط وفتن الخارجية والعرب والبربر في المغرب تلقى على الشاطيء أحاديث في ذم إفريقية والبربر .

وهذا كله بدأ يستخدم في الأحكام ؛ لأن القضاة كما قلنا لم تكن لديهم العدة الكاملة

إصدار الأحكام المؤسسة على قاعدة الإسلام ، والسنة دخلها زيف كثير وتناقض وظهر القياس واستعمل دون ضابط ، وتحدث الناس في الإجماع وأعطوه أكثر من معنى ، فأهل المدينة يرون أن الإجماع هو إجماع أهل المدينة وهى دار الهجرة ، وأهل العراق كان لهم في الإجماع رأى آخر أما الرأى فقد توسع فيه الناس وربما كانوا معذورين فالقضايا كثيرة متوالية ، والناس يريدون أحكاماً وبعض القضاة بدأوا يصدرون أحكاماً صادرة عن الرأى والنظر الشخصى فلم يكن للكثيرين منهم علم تام بالقرآن ومعانيه ، والسنة لم تكن قد دونت بعد .

وسط هذه الظروف التى فرضت نفسها فرضاً ظهر مالك بن أنس وأصله البعيد من قبيلة ذى أصبح من الحميريين اليمانيين هاجر أبوه أو جده إلى الحجاز وصاهروا بنى تيم بن مرة القرشيين أو حالفوهم ، ومالك نفسه ولد في المدينة حوالى سنة ٩٥ هـ ، ومن سن باكراً بدأ يتعلم ثم مال إلى السماع من الشيوخ وكان السماع كله إذ ذاك قراءة للقرآن ورواية للحديث والآثار ونقدها ، وكان علم شيوخ مالك مرتجلاً كله وبعضهم كانوا ذوى ملكات علمية صحيحة فانتفع بهم وبعضهم لم يكونوا بشيء .

وضرب مالك بن أنس في مداخل الشباب وتفتحت ملكاته وظهر ذكائه وحسن استعداده ، وبدأت شخصيته الوقورة الرزينة والجميلة أيضاً في الظهور وكان الله قد رزقه هيئة ووسامة وحسن مظهر وذوقاً جيداً في الثياب وحرصاً تاماً على النظافة وحسن المظهر ، ولم يكن ذلك عفواً ولا تكلفاً وإنما كان مالك يحرص عليه عن قصد . قال في ذلك أبو العباس أحمد بن خلكان في « وفيات الأعيان » وكان مالك إذا أراد أن يحدث « يحاضر في الحديث » توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث . ف قيل له في ذلك فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدث به إلا متمكناً على طهارة وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائماً أو مستعجلاً ، ويقول : أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله ﷺ وكان لا يركب في المدينة مع ضعفه وكبر سنه ويقول : لا أركب في مدينة فيها جثة رسول الله ﷺ مدفونة (٢ / ٢٨٤) قدرها جميعاً ويقدر مسئولية إمام أمة الإسلام .

ومالك لم يبدأ من فراغ فإن طبيعة العلم على المستوى الذى كان فيه مالك لا تعرف

الفراغ وإنما هي أجيال من أهل العلم كل منها يرث علم السابقين عليها ، ويضيف إليها ما يتيسر له في بحر حياته ثم يسلم الراية إلى الذى يليه وهكذا ، وقبل مالك كانت المدينة المنورة ومكة مثلها في ذلك مثل بقية أمصار الإسلام حافلة بالعلم والعلماء ، ومالك ولد سنة ٩٥ هـ على ما قلناه وهو عندما فرغ من المرحلة الأولى من التعليم — ربما في العشرين من عمره — كنا في سنة ١١٥ هـ وكان جيل فقهاء المدينة السبعة قد انتهى فما بين سنتي ٩٤ هـ توفي فيها سعيد بن المسيب ، وسنة ١٠٦ هـ توفي فيها قاسم بن محمد سابع السبعة ، وليس من الضروري أن يكونوا سبعة وقد يكون التحديد بسبعة ناشئاً عن سحر هذا الرقم ، فالغالب أن كبار جيل أولئك الأعلام الأجلاء كان أكثر من سبعة ، فبعضهم يضيف إليهم قبيصة بن ذؤيب ففى حلقة درسه في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة درس عروة بن الزبير أحد السبعة وهو أخو عبد الله الذى طلب الخلافة وأخيه مصعب الذى أعانه في طلبه وفى حلقة أيضاً جلس أبو بكر بن عبد الرحمن وعبد الملك بن مروان (الذى صار خليفة) ، وعبد الرحمن بن مسور وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، وهناك أيضاً عكرمة وعطاء بن أبى رباح وغيرهم وكان من بين فقهاء المدينة هؤلاء امرأة هي عمرة بنت عبد الرحمن .

هؤلاء جميعاً كانوا يتحسسون طريقهم إلى العلم : لأن العلم كان لا يخرج عن القرآن والحديث ، فأما القرآن فكان موجوداً ثابتاً مستقراً ولا سبيل إلى البحث في أصالة نسه ، وإنما الكلام كان في تفسيره والتفسير كان في بداياته .

وأما المشكلة فكانت في الحديث فهو لم يجمع بعد ، بل كان هناك خلاف فيما إذا كان يجوز جمعه وكتابه مخافة أن يختلط بعضه بالقرآن وانتهى بهم الأمر إلى جواز كتابته ، بل ضرورة ذلك ، وهنا كانت المشكلة الحقيقية فأين الحديث الصحيح والمدينة تفيض بألوف وكل منهم يروى (أحاديث يقول : إنه سمعها) فلا بد من وضع قواعد لرواية الحديث والتأكد من صحته ومعظم الذين ذكرناهم وغيرهم كثيرون جداً كان طلب الحديث هو شغلهم الشاغل ، ومناقشاتهم كلها كانت تدور حول نقد ما يصل إليهم من حديث رسول الله ﷺ وتبين للناس أن بعضهم محل ثقة وأن منهم من ثبت عدم صحة روايته ومنهم من كان بين بين .

والعلم في ذلك العصر كان القرآن والحديث الصحيح ، وأما استخراج الأحكام من

هذين الأصلين الثابتين فهو الفقه أو الحكمة وكان الخلاف كبيراً في آراء الناس بعضهم في بعض وابن سعد صاحب الطبقات يقول: إن رواية الحديث علم، وهو يفرق بين العلم والفقه، وكذلك فعل النووي. والطبرى في تفسيره يجعل القرآن علماً على حدة، ويقول: القرآن والعلم والفقه، والعلم هنا هو الحديث، والفقه هو استخراج الأحكام من القرآن والسنة، وثمره الفقه هي الرأى فكانوا يقولون: إن زيد بن ثابت فقيه في الدين وعالم بالسنة، أما سعيد بن المسيب فكان فقيه الفقهاء وعالم العلماء، والذهبي يقول في طبقات الحفاظ: إن أبا ثور كان أحد أئمة الدنيا علماً وفقهاً، وعندما كان عطاء ابن أبى رباح يدلى برأيه كانوا يسألونه: أهذا علم أو رأى؟ وكان يجيب: بل هذا علم.

والخلاصة أن هؤلاء الشيوخ الأجلاء - وفيهم صحابة ولكن معظمهم كانوا تابعين وتابعيهم - كانوا يبحثون عن الحقيقة أو قل عن القاعدة الصلبة التي يقيمون عليها الحقيقة الإسلامية، وكانوا جادين الجد كله في هذا المطلب، والجميل الذى يدعو إلى الإعجاب أنهم وصلوا في النهاية إلى بناء قاعدة العلم بالإسلام بنوها بجهد بالغ وعمل متواصل، فوصلوا إلى قواعد محكمة لتفسير القرآن وموازين دقيقة لنقد الحديث وأصول مقررة للفقه أى استخراج الأحكام والآراء، والرأى عندهم كان لا بد أن يقوم على أساس من العلم وهذا الأساس يسمى علة الشرع، وهذا ما يقابل في القانون الرومانى Ratio Legis وفى الفرنسية Le Mobile Delebi وشيئاً فشيئاً وخلال النصف الأول من القرن الهجرى الثانى تأخذ الصورة - صورة العلم والفقه - تتضح وإلى جانب سعيد بن المسيب الذى أجمع الكل على علمه وفقهه وجودة رأيه يظهر الزهرى محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب (٥٠ أو ٥٦ هـ - ١٢٤ هـ) الذى أجمعت الآراء على أنه من أعلم أهل المدينة بحديث رسول الله ﷺ وأن الأحاديث التى تنسب إليه مرفوعة إلى نافع أحاديث صحيحة فيما عدا ما اختلق ودُس عليه بعد وفاته، والزهرى كان أستاذاً وصاحباً لمالك فقد تصاحباً وتدارسا زماناً، والزهرى مات قبل وفاة مالك بخمس وأربعين سنة أى ومالك فى عنفوان نشاطه وعمله.

وظهر أمر ربيعة بن أبى عبد الرحمن وكان أصغر من الزهرى وقد اشتهر بغزارة العلم وصدق الحديث وجودة الرأى حتى لقب بربيعة الرأى، وإن كانت هذه الشهرة غير دقيقة؛ لأن الرجل فى الحقيقة لم يكن من أكابر الذين اشتهروا بالرأى، وكان ربيعة آية فى العلم والخلق والزهد فى الدنيا مع كرم بالغ وتصاؤن. دعاه أبو العباس السفاح

إلى العراق ليوليه القضاء فذهب وهو مزعم الرفض ولكنه كان رجلاً عاقلاً مهذباً يخدم الأمة بعلمه ولا يرى خيراً كثيراً في المواجهة الصريحة مع الجبابرة ، فذهب ورفض القضاء وأبى أن يقبل خمسة آلاف درهم عطية من أبى العباس وعاد ليقول عن العراقيين : « رأيت قوماً حلالنا حرامهم ، وحرماننا حلالهم ، وتركت بها أربعين ألفاً يكيّدون لهذا الدين » ثم يضيف : « كأن النبي الذي بعث إلينا غير النبي الذي بعث إليهم » وهو يشير بذلك إلى المعتزلة وغلاة المرجئة وغلاة الشيعة والخوارج ، وهنا يقول الأستاذ عبد الحليم الجندی وهو من أحسن من كتب عن الأئمة الأربعة : وكان ثمة القياسون من فقهاء العراق الذين حاربتهم مدرسة أبى حنيفة ، وكان أبو حنيفة هناك يتوسط حلقة عظيمة تعمل عملها العظيم في الاجتهاد وإبداء الرأي ، وربيعه نفسه صاحب رأى منبذ الصبا ، ناقش سعيد بن المسيب في مسألة مجادلاً بالقياس وجادله سعيد بالسنة (مالك بن أنس لعبد الحليم الجندی ص ٥٣) .

وظهر كذلك أمر نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم (ت ١٦٩ هـ) وكان قارئاً جليلاً للقرآن ، وراويّاً صدوقاً لحديث رسول الله ﷺ ، وظهر كذلك أمر محمد بن المنكدر (ت ١٣٠ هـ) كبير العلماء والفقهاء قولاً وعملاً ، وكان شديد الشعور بمسئولية أهل العلم تجاه الأمة ، وكان عابداً زاهداً يعيش للعلم والعبادة ولا شيء غير ذلك وقد كسب مالك منه فضلاً عظيماً وظهر كذلك عبد العزيز بن الماجشون الفقيه الراوية الجليل الذى توفى سنة ١٦٤ هـ ، وهؤلاء كانوا كبار شيوخ مالك الذين تكون في مدرستهم وتخلق بأخلاقهم وسار في طريقهم إلى الذروة التي لم يكن منها بد في رأى مالك : ذروة جمع هذا العلم كله : القرآن وتفسيره والحديث والآثار وضبطها وتصفيتها وما يجمع عليه أهل المدينة من الرأى والعمل الصحيح المتواتر عن رسول الله ثم قياس ما يجد من القضايا على ما مر منها إذا لم يوجد في القضية قرآن صريح أو حديث صحيح .

ولكن ما الذى ميز مالكاً وأظهره من بين هؤلاء جميعاً ، وكلهم كما رأيت من أجل الفقهاء وأصفى المسلمين سريرة وأكثرهم جلالة ؟

ميزه الفكر العملى الواضح المبتكر ، فهؤلاء جميعاً يروون الأحاديث ويفتون في المسألة بعد المسألة ، والناس يفيدون من ذلك كله ولكن الذى كان الناس في حاجة إليه حقاً مجموع قانونى كامل وعملى قابل للتنفيذ يحل للمسلم كل مشاكله العملية على

أساس سليم من العلم بالإسلام والفقهاء على قاعدة الإسلام ، لقد كانت الأمة كما رأيت في كلام ربيعة الرأي عن أهل العراق أشبه بقارب في بحر متلاطم والدولة كانت قد ضيعت القواعد وأخضعت كل شيء لصالحها وأخافت الناس وخرجت عن نهج الله واجتاحت الناس تيارات أفكار المعتزلة وغلاة الخوارج والمرجئة والشيعة ، والقاضي يجلس في مجلس قضائه وتعرض عليه القضايا فيجد في المسألة الواحدة ألف رأى وقد لا يجد أصلاً فكيف يحكم مهما صحت نيته ، والناس هنا في حاجة إلى قانون واحد شامل قائم على علم صحيح وإسلام سليم وفقه دقيق يشمل كل التشريعات من العبادات إلى النكاح والمواريث والبيوع أى المعاملات والحدود أى العقوبات والجراحات وهى ما نسميه الجنایات .

وهذا هو الذى تصدى له مالك وهنا عبقريته : وضع ذلك المجموع التشريعى الذى يهتدى به القضاة ويطمئن إليه الناس وتأليفه وتقسيمه على أبواب وفصول وفى كل مسألة يكون هناك رأى واضح يرتاح إليه القاضى وهذا الرأى هو الذى عرف برأى مالك وتبسيط ذلك كله و تقريبه إلى عقول الناس وتسهيل تطبيقه ، وهذا هو الموطأ أى المبسط المسهل المقرب للعقول .

هنا عبقرية مالك وخدمته الجلييلة لأمة الإسلام . كان قد سبقه إلى ذلك علماء أجراء ولكن الواحد منهم يؤلف فى ناحية ويترك عشرات . أما مالك فقد كان الأول الذى جمع العلم والفقهاء جميعاً وصاغه فى منهج واحد شامل قائم على القاعدة الإسلامية السليمة فى حدود منهج الله ورسوله ، والمنهج هو الطريق الذى اصطالحنا على تسميته بالمشهد ، ومذهب مالك هو الأول وموطأه هو الحدث العظيم فى تاريخ الفقه والتشريع الإسلامى .

* * *

أَبُو حَنِيفَةَ وَالْمَشَى عَلَى حَدِّ الْمُوسَى

أرجو أن يكون فيما كتبت عن مالك بن أنس والموطأ ما يوضح مقصدي من هذه الدراسة ، وما أرمى إليه من فتح نهج جديد في دراسة تاريخ أمة الإسلام والفكر الإسلامي ، فقد بيّنت الدراسة المتأنية لتاريخ الفقه كيف أن علماء الأمة وفقهاءها عرفوا كيف يبنون للأمة قاعدة صلبة إسلامية خالصة هي التي حفظت على العالم الإسلامي بعد ذلك وحدته ، ومكّنت له من الصمود أمام الأخطار والصدمات وسوء الحكم فقد حسب بعض شيوخ الأجلاء وخاصة محمد الطيب النجار وعبد المنعم النمر أنني أتجه إلى بيان السلبيات وخافوا أن يؤدي ذلك إلى زعزعة ثقة الناس في أمتهم وتاريخهم فما هم أولاء يرون الآن كيف قام البناء الأساسي لأمة الإسلام الواحدة على أكتاف أهل العلم المخلصين من علماء القرآن إلى شيوخ السنة وأئمة الفقه ، ومن هنا يتجلى لقارئى أنني في الحقيقة أحاول أن أؤرخ لهذه الأمة كما ينبغي التأريخ لها في رأيي . فأهل السياسة بعد العصر الراشدي كانت تعنيهم دولهم ومصالحهم في المكان الأول فإذا بقى فيهم فضل من قوة وجهد أنفقوه على الأمة ، والأمة ابتداء من شيوخ مالك ثم مالك وجدت نفسها في الاعتصام بحبل الله وهو الإسلام وأمنت على نفسها بالشرع الإسلامي الحنيف الذي عرف مالك كيف يوسع قاعدته ويربطه ربطاً متيناً بالأصل الإسلامي من ناحية ، وبالواقع من ناحية أخرى ، وأصبحت الشريعة - القائمة أصلاً على القرآن والسنة - جذع الشجرة الإسلامية الصلب المتجدد الحيوية ، ومن الجذع تفرعت فروع الشريعة التي أظلت أمة الإسلام ووقتها عواصف الدهر وتصاريف الأيام .

ولم تعد الأمة تعتمد أساساً على حكامها ؛ لأن الأمة هي جذع الشجرة الثابت الدائم ، وأصبحت الدول هي لحاء الشجرة الذي يتبدل مع الزمن ، ووقع نتيجة لهذا الانفصال بين الدولة أي السلطة السياسية المتغيرة المتبدلة والأمة الدائمة أي السلطة الشرعية الحقيقية ، ولم يعد يعنى الأمة في كثير أن يتولاها سليمان بن عبد الملك أو أخوه هشام أو أبو العباس السفاح أو أخوه أبو جعفر فالأمة تمسكت بالإسلام وسارت على المنهج الذي قربه لها مالك ووطأه وأصبحت في مأمن ، أما الدول فقد سارت في طريقها

حريصة على ما تصورته أنه صالحها دون نظر إلى المنهج ، فإذا وافق المنهج صالحها سارت فيه ، وإذا تعارض مع هذا الصالح فلا منهج ولا شرع ولا حتى أخلاق ومن هنا وقع الانفصال القاطع بين الأمة والدولة في تاريخ الإسلام ، ورياسة الأمة وإمامتها الفعلية انتقلت إلى الشيوخ وأهل العلم والفقه والدين والورع أولئك هم حراس المنهج والقائمون عليه وهنا بالذات يكمن التاريخ الحقيقي للإسلام وأمتة أما تواريخ الدول فهي ثياب تتبدل على الأمة أو قل توالى عليها ، والثياب ليست الرجل وهذه حقيقة عبر عنها توماس كارلايل في كتابه الجميل Sortus Resor Tus وهي عبارة لاتينية معناها - تقريباً - الخياط يخطط ويعيد الخياطة كيف يشاء ولكن الرجل لابس الثوب - هو كل شئ - وأظن أن هذا مذهب في فهم تاريخ الإسلام يريح قلوب كل حريص على الإسلام وأمتة وعلى رأسهم الفقهاء وأهل العلم وهم أهل المنهج ، فقد تبين لي من دراسة تاريخ العلم عند المسلمين أن كل عالم صادق مخلص هو فقيه في ميدانه وشيخ في بابه وهو من أهل المنهج ورائد من رواد الأمة في طريق الرشاد ، والرائد كما قال رسول الله ﷺ لا يكذب أهله .

وقبل أن أستطرد في الكلام على بقية الأئمة لأبين فضلهم في الحفاظ على هذه الأمة على المنهج أضرب هنا مثالاً واحداً يغنى عن كثير ، فعندما دخل رسول الله مكة فاتحاً قال فيما قال : « إن مكة حرام » أي لا يجوز فيها قتال ولا قتل وإليك كلام الواقدي بنصه ، وما يقوله الواقدي هنا وارد في كل كتب الحديث فهو حديث صحيح مجمع عليه ولا خلاف فيه ، قال الواقدي : فقام رسول الله ﷺ وهذه الخطبة الغد من يوم الفتح بعد الظهر فقال : « أيها الناس إن الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ويوم خلق الشمس والقمر ، ووضع هذين الجبلين فهي حرام إلى يوم القيامة ، لا يحل لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ، ولا يعضد (يقطع) فيها شجراً ، لم تحل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا ساعة من نهار ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ شاهدكم غائبكم فإن قال قائل : قد قاتل فيها رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله قد أحلها لرسوله ، ولم يحلها لكم ، يا معشر خزاعة : ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل إن نفع وقد قتلتم هذا القتل لأدينه وإن شاءوا فعقلته » . (مغازي الواقدي ٢ / ٨٤٤) .

فهنا حديث نبوي لا نزاع في صحته بتحريم القتل والقتال داخل حرم مكة ، أما ما حدث يوم الفتح فقد أحله الله لرسوله ساعة واحدة ثم حرمه ، وخزاعة وكانت في حلف رسول الله ﷺ لم تستطع أن تضبط أعصابها عند دخول مكة فقد كانت موتورة من بنى بكر بن عبد مناة لما فعلوه بها غدراً وعلى صورة دموية بشعة رغم صلح الحديبية فاندفعت يوم فتح مكة تريد أن تأخذ بثأرها من بنى عبد مناة وقتلت منهم رجلاً فأمرهم الرسول صلوات الله عليه بالكف عن القتل لأن القتل لا ينفع ، ولو أنه ينفع لكثير في الناس ، ومع ذلك كله فقد ودى الرسول قتيل خزاعة من ماله .

إذن فهذا هنا تبليغ صريح من رسول الله ﷺ بتحريم القتل والقتال في حرم مكة ، والفقهاء بتحريمهم السنة واجتهادهم في ضبطها وتحقيقها أكدوا حرمة مكة ليظلوا على المنهج ، فانظر ماذا فعل رجال السياسة وأقرأ معى عند الواقدي .. والخبر وارد في كل مراجع التاريخ الأموى « فدخل شريح (القاضى) على عمرو بن سعيد بن العاص (القائد الأموى وهو من رجال السياسة) وهو يريد قتال ابن الزبير (داخل مكة وكانت دعوته فيها) فحدثه هذا الحديث وقال : إن النبى ﷺ أمرنا أن يبلغ الشاهد الغائب وكنت شاهداً وكنت غائباً وقد أديت إليك ما كان الرسول ﷺ قد أمر به فقال عمرو بن سعيد : انصرف أيها الشيخ فنحن أعلم بحرمتها منك : إنه (أى تحريم القتل والقتال في مكة) لا يمنع من ظالم ، ولا خالغ طاعة ولا سافك دم ، فقال شريح : قد أديت إليك ما كان النبى ﷺ قد أمر به فأنت وشأنك .. (مغازى الواقدي ٢ / ٨٤٤) .

فهنا ولمصلحة سياسية خالف رجل السياسة السنة : لأنها لم توافقه فخرج على المنهج وأحل لنفسه قتال ابن الزبير داخل مكة ولو أنه احترم حرمتها وشدد الحصار عليها دون أن ينتهك حرمتها لأخذ ابن الزبير إمساكاً باليد فإن مكة لا تصبر على طويل حصار ، ولكن السياسة عمياء القلب والبصيرة وهنا نرى بصورة واضحة جداً تمسك الفقيه بالسنة والمنهج وخروج رجال السياسة عن السنة والمنهج ، هنا ترى بنفسك فراق ما بين الأمة والسياسة فإن رجل السياسة أحل لنفسه ما حرم الله ورسوله ، والفقيه أبغى حديث رسول الله ﷺ فأبى أن يسمع فتركه وشأنه وما كان ليستطيع أن يفعل غير هذا وفى ذلك بلاغ واضح لما أريد أن أقول .

وقد كان حرص أهل العلم والفقهاء الأول على جمع الحديث والتدقيق في ذلك ،

والاعتماد على القرآن والسنة في استخراج الأحكام منهما حرصاً على أن يكون العدل في أمة الإسلام قائماً على قاعدة الإسلام وهي القرآن والسنة لا يجاوزها ، فإن العدل قد يتحقق بالمنطق والإحساس ولكنه يكون في هذه الحالة مصادفة أو هوى أو مزاجاً ، والشريعة الإسلامية لا ينبغي أن تترك للمصادفة والهوى والمزاج وقد يسكت صاحب الحق عن حقه راضياً طلباً للسلامة أو تهاوناً منه في حق نفسه وهذا لا ترضاه شريعة الله ؛ لأن الحق يظل حقاً دائماً وإن تهاون فيه البعض ، ويظل حقاً وإن تغاضى عنه صاحبه استصغاراً لشأنه فقد يكون لك عند رجل قرش فتتركه فيكون ذلك عدواناً منك على الحق المطلق ويظل حقه قائماً وإن تهاونت فيه ، وقد ضربنا مثل الرجل يعتدى على شرفه فيتغاضى فلا يكون معنى ذلك تجويز : العدوان على العرض ؛ لأن المتهاون لا يصون عرضه ولكن شرع الله يصونه ، وعرض أمة الإسلام واحد .

وخلال القرن الهجري الأول أى قبل أن يظهر مالك ويتجه إلى إكمال القاعدة بجمع الحديث الشريف ثم الانتفاع به في وضع تشريع إسلامي كامل يحكم تصرفات الناس وينير الطريق أمام القضاة لكي تكون أحكامهم دائماً قائمة على قاعدة إسلامية سليمة ، كانت أحكام القضاة أحياناً تقوم على التقدير الشخصي والحس السليم فتكون مقبولة وربما عادلة ولكنها لا تكون عادلة عدلاً إسلامياً ؛ لأن العدل الإسلامي لا بد أن يكون مرتكزاً على قاعدة إسلامية : قرأناً وسنة أولاً ثم قياساً وإجماعاً بعد ذلك ، والعدل الإسلامي ينبغي أن يكون مرضياً للجماعة كلها لا لفرد منها فحسب ، وقد ضربت لك مثل الذي يتنازل عن حقه في الاعتداء على عرضه أو سرقة ماله ؛ فيكون تنازله عدواناً على حق الجماعة ولا يكون عدلاً ، وتلك هي أهمية الإجماع في رأى مالك ، ولهذا فقد انتهى به الفكر إلى أن يكون الإجماع هو إجماع أهل المدينة من التابعين ومعاصريهم وتابعيهم ممن توارثوا عمل الرسول ﷺ والصحابة وأصبح عملهم قرينة أو حجة ، ومالك كما قلنا عاش فيما بين سنتي ٩٦ - ١٧٩ هـ / ٧١٤ - ٧٩٥ م على أصح الأقوال فكيف كان يتم القضاء في المسائل التي تعرض على القضاة كل يوم في أنحاء عالم الإسلام ؟

هنا ننظر في كتاب « أخبار ولاية مصر وقضاتها » للكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م وهو من أحسن الكتب وأولها بالثقة في معرفة أخبار القضاة وطرائقهم في الحكم في بلد كبير من بلاد الإسلام وهو مصر فنجد أن القاضي عبد الرحمن بن حجية

قاضي مصر فيما بين سنتي ٦٩ - ٨٢ هـ يصدر أحكامه بحسب ما يرى أنه العدل دون الاستناد إلى سند من قرآن أو سنة كأنه حكم من أحكام الجاهلية ويزعم أحياناً أنه يستند في قضائه إلى أفضية صدرت عن عمر بن الخطاب ، ونجد أن الخليفة عمر بن عبد العزيز يقر حكماً أصدره أحد القضاة بحسب ما تراءى له في موضوع يتصل بالصداق ويقول لم يبلغنا في ذلك شيء ، والقاضي توبة بن نمر قاضي الفسطاط فيما بين سنتي ١١٥ - ١٢٠ هـ (٧٢٣ - ٧٢٧ م) كان يخطيء في تطبيق قول الله سبحانه في سورة البقرة (٢ / ٢٣٦) ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرُسُوا لَهُنَّ فَرِيضَةٌ وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ فكان يقضى للمطلقة بمال في كل حالة ، فإذا روجع في ذلك قال : إنه يستند في قضائه إلى الآية ٢٤١ من نفس السورة ﴿ وَلِلْمُطَلَّاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ . بل يقرر الكندي : إن واحداً من قضاة مصر كان أمياً لا يحفظ من القرآن إلا ما يقيم به صلاته فكان يقضى بما يترأى له أنه العدل أو بما نسميه نحن بالمعقولي ، وكل هذا كان يبلغ مالاً ويرى أنه خطأ ؛ لأن التشريع ينبغي أن يقوم على أساس إسلامي والقرآن الكريم والسنة فيهما غناء فإذا أضفنا إلى ذلك عمل أهل المدينة وقدراً معقولاً من القياس لم يجد القاضي أمامه قضية تستعصى على حل إسلامي سليم .

وهذا هو الذي صنعه مالك عندما وضع الموطأ أو قدم به للمسلمين جميعاً قاعدة سليمة للتشريع والقضاء وربط سد حاجات الناس جميعاً وحل مشاكلهم بالقاعدة الإسلامية ، فلم يعد هناك مجال للحكم بالهوى والقضايا كلها رتبت ونظمت في الموطأ وأقيم الحكم فيها كلها على أساس إسلامي واحد وربما كان دافع مالك إلى وضع الموطأ ما قاله ابن المقفع في رسالة إلى أصحابه من أن للسلطان أن يحكم برأيه في كل ما يتعلق بالمال والإدارة ، أما فيما يتعلق بالدين فلا بد من استشارة أهل العلم والفقه والأثر كما قال ، فإذا اعتسف الرأي دون ذلك فهو مسئول عما يصدر من أحكام أمام الله ، ثم إن ما أشار به ابن المقفع من أن يجمع السلطان أهل الفقه فيضعوا قضاء جامعاً يحمل الناس كلهم عليه لقي إنكاراً شاملاً من أهل الفقه ، بل إن مالكا رفض نفس الفكرة عندما عرض أبو جعفر المنصور على مالك أن يحمل الناس على رأيه ؛ لأن الفكرة الأساسية كانت أن الدولة وقد خرجت عن المنهج لم يعد من حقها أن تتدخل في التشريع وهذا هو

السر في ذلك الترحيب الواسع المدى الذي لقيه الموطأ ، وقد تحمس له تلاميذ مالك وخاصة المدنيين والمصريين وأهل المغرب والأندلس حماسة لا نعرفها عند تلاميذ أى إمام آخر ، وقد بلغ من حماسة تلاميذ مالك (مثل أشهب بن عبد العزيز ، وعبد الرحمن ابن القاسم العتقى من المصريين ، والبهلول بن راشد ، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم من أهل المغرب ، ويحيى بن يحيى الليثى ، والغازى بن قيس وعبد الرحمن بن زياد بن شبطون ، وعيسى بن دينار من الأندلسيين) لمذهب مالك أن تلاشت أمامه كل المذاهب الأخرى وأصبح رأى مالك ومذهبه هما القول الفصل في كل الأقضية ولا مكان عندهم لمذهب أبى حنيفة مثلاً .

وقد ظهرت في أيام مالك وبعدها مذاهب أخرى ولكن مالكا يفضلها كلها بشيئين : الأول : هو أن موطأه شامل لكل أبواب الفقه والأحكام فلا يجد القاضى مهما كان مستواه عناء في العثور على حل فيه لما يعرض عليه من القضايا فهو ليس الموطأ فقط إنما هو المريح أيضاً . والثانى : هو أن لمالك فضل السبق إلى وضع تشريع كامل قائم على القاعدة الإسلامية وللسابق فضله الذى لا ينكر .

وكان أبو حنيفة النعمان بن ثابت رجلاً يختلف عن مالك بن أنس كل الاختلاف في الأساسيات ، ولكنه كان يتفق معه في النظرة إلى الحياة والموقف منها ، عاش أبو حنيفة فيما بين سنتي ٨٠ - ١٥٠ هـ / ٦٩٦ - ٧٦٧ م فهو معاصر لمالك ولد قبله بست عشرة سنة ، ومات قبله بخمس وعشرين سنة ، وعاصر بنى أمية وبنى العباس ووقف من الحكام نفس موقف مالك فلم يدخل في خدمتهم ولا هو استحل أن يأخذ لنفسه شيئاً من أموالهم ولكن مالكا كان رجلاً منهجياً في حياته وعمله فهو يبادر كل يوم إلى مجلس الدرس ويلقى دروسه بنظام تام فلا ينتقل من باب من أبواب الفقه إلى الآخر إلا إذا استوفاه وهو يراجع ما يدونه لتلاميذه من كلامه يصححه حرفاً حرفاً وكلمة كلمة حتى يستوثق مما يروى عنه ، أما أبو حنيفة فكان رجل فكر وبديهة فهو غزير العلم وقاد الذكاء وهو يكتفى بالكلام دون أن يحرص على تأليف ، ولكنه - مثل مالك - يعيش للعلم والفقه ، ولكنه يكمل أمر التدوين لتلاميذه ولم يختلف الناس في أحد كما اختلفوا في

أبى حنيفة فأنصاره يغالون في مديحه حتى يجعلوه فقيه الإسلام بلا منازع ، وخصومه يحملون عليه حتى يتهموه بالمروق ، والمالكية بالذات لا يحبون أبى حنيفة ولا يطبقون ذكر مذهبه ، وفي المغرب وهو معقل من معاقل المالكية يرون أن أبى حنيفة ومن درس عليه أو تبعه في مذهبه خرج من الدين ، وهم يسمون الحنفية وأهل مدرسة العراق عامة بالمشاركة ، ومن شرّق عندهم فهو زنديق .

ولكن الحق أن أبى حنيفة من أعظم المفكرين الإسلاميين وهو شخصية جميلة بل فاتنة ، فقد كان الرجل غنياً ذا مال من تجارة ناجحة في البرز والثياب ، وكان جميل الطلعة حسن السميت شديد الحرص على مظهره دون تكلف وحياته كلها من أهل النعمة ومعظم ما يقال عن محنته وسجنه وموته في السجن يغلب أنه مجرد قصص ، والرجل أودى من جانب أهل السلطان ولا ريب ، وربما يكون قد ضرب أسواطاً حقاً وربما يكون قد دخل السجن ولكن لفترة قصيرة ولكنه لم يمّت في الحبس ولا مات تحت السياط .

ولا يمكن الكلام عن أبى حنيفة على أنه قمة من قمم الفقه طفرت من الأرض دفعة واحدة ، وإنما هو الدرجة العليا في سلم طويل من أهل الرأي من أعظم شيوخ العراقيين ما بين كوفيين وبصريين ، فأبو حنيفة يقف في آخر طريق يبدأ عند عبد الله بن مسعود وأصحابه ، ويمر بإبراهيم النخعي ، وشريح القاضي ، والحسن البصرى ، والشعبي ، وهؤلاء جميعاً كانوا محدثين ملتزمين بالحديث وكانت عنايتهم بالإسناد لا تقل عن عناية المالكية ، ولكن نقطة الخلاف كانت في طريقة استخراج الأحكام من القرآن والسنة ثم في معنى الإجماع وفي طريقة استعمال القياس ، وفي الأهمية التي تعطى للرأى الذى يقوم عند الأحناف على الذكاء والفكر الشخصى والمنطق مرتبطاً بالقرآن والسنة في كل حالة ، وهنا ميزة أبى حنيفة الكبرى فهو رجل يدرس ويتقصى ويجمع الأصول ثم يقول رأيه ، وإذا كان الموالك يقفون خلف الإسناد فإن الأحناف يجعلون الإسناد وراء ظهورهم وإن التزموا به كل الالتزام .

والظاهرة الكبرى التي تميز أبى حنيفة هي ذكاؤه الخارق وجودة رأيه وسلامة فكره وسرعة بديهته دون اهتمام كبير بالتأليف ، فهو على الحقيقة لم يؤلف شيئاً فكتاب الفقه الأكبر المنسوب إليه ليس من تأليفه ، وإنما هو تدوين لبعض تلاميذه عنه ،

والنسخة التي لدينا منه كتبها الماتريدي المتوفى سنة ٣٣٣ هـ ، ومسند أبي حنيفة جمعه الخوارزمي ، وقد جمعه وحققه من خمس عشرة رواية فهو ليس من تأليف أبي حنيفة وذلك القعود عن التأليف يرجع في الغالب إلى تهيب أبي حنيفة أمر التأليف ، وتحزره من أن يسجل بقلمه شيئاً دون أن يكون واثقاً منه كل الوثوق .

ومن دلائل ذلك موقفه من الحديث ورواته وأسانيده فيقال : إنه لم يسلم إلا بصحة سبعة عشر حديثاً ويزيدها بعضهم إلى خمسين ، وليس ذلك بغريب لأن اعتماد الحجازيين على الحديث واهتمامهم بأسانيده فتح الباب على مصراعيه ففاضت السنة الناس بالأحاديث فيضاً ، وفي الصراع السياسي الذي اشتد أواره خلال القرن الأول الهجري والثاني استخدمت الأحاديث سلاحاً ، والسياسة لا تعرف الإيمان فكل من أراد أن يقول برأى اختلق حديثاً وابتكر له إسناداً ، ومالك في موطنه اعتمد على ما يزيد على الألف حديث ، وجاء نقاد الحديث وتناولها شيوخ أجلاء بالدرس والنقد فلم يصح لهم منها إلا نيف وثلاثمائة ، وبعضهم جعلها سبعمائة أو ألفاً وسبعمائة ، ثم جاء البخاري فجمع كل ما كان يجري على السنة الناس من الأحاديث بإسنادها ، واجتهد في الجمع والتحري حتى اجتمع في صحيحه سبعة آلاف حديث ، وقد جعل صحيحه أبواباً ، ومن هنا فقد تكررت الأحاديث بحسب الأبواب وقد أحصوا الأحاديث المتكررة في صحيح البخاري بثلاثة آلاف .

وأبو حنيفة بذكائه البعيد لم يستطع قبول هذا الحشد الهائل من الأحاديث فجعل يدقق وينظر ويعتمد أساساً على القرآن الكريم فهو عنده النص الوحيد الذي لا شك في حرف من حروفه ، وما دام الأمر كذلك فقد وسع أبو حنيفة نطاق العقل والرأى والقياس ولكنه لم يتجاوز القاعدة قط ، والذي يبهرك في فقهه هو ذكاؤه الخارق فعلاً وينبغي أن ننبه هنا إلى أن الفروق بين أئمة المذاهب في الأحكام وطرق استخراجها كانت قليلة جداً ، إنما الخلاف كان بين أتباع الأئمة وانظر مثلاً إلى ما يقوله ابن حزم عن طريقة أبي حنيفة أي مذهبه في كتابيه « الإحكام في أصول الأحكام » و « المحلى في الفقه المعلى » وهو كلام غير معقول من إمام جليل مثل ابن حزم وستفصل الحديث في ذلك عند كلامنا عن ابن حزم .

والحقيقة أن موقف أبي حنيفة كان أدق وأصعب من موقف مالك ، فمالك في الحجاز بعيد عن الدولة ورجالها وهو في المدينة يلقي دروسه ويؤلف بعيداً عن السلطان

أما أبو حنيفة فقد عاش وعمل في العراق متردداً بين البصرة والكوفة والهاشمية والأنبار ثم بغداد ، والدولة العباسية تريد أن تكسب هذا الرجل العظيم إلى جانبها ولكن غدر العباسيين بالعلويين وضع الرجل في مأزق فإن قلبه مع العلويين وتصرف أبي جعفر المنصور معهم لا يرضيه فهو رجل من الأئمة والأمة متعلقة بآل البيت والأمة بكت مصارعهم ، والذي فعله المنصور مع عبد الله بن الحسن وابنيه محمد وإبراهيم وبقية العلويين لا تقبله أو تسكت عليه نفس أبية مؤمنة ، ولهذا كان أبو حنيفة بإيمانه العظيم يسير على حد الموسيقى والأخبار عن مواقف مع أبي جعفر المنصور أشبه بالأساطير ولا نستطيع قبول معظمها ولكننا نستطيع أن نقول دون حرج : إن محنة أبي حنيفة الحقيقية لم تكن السياط أو السجن وإنما الحياة نفسها إلى جانب طغاة جعلوا السياسة فوق الدين وهانت عليهم الدماء حتى صار دم الإنسان عندهم أهون من دم البرغوث .

ومن هنا فإننا لا يجوز أن نقسو في الحكم على نفر من أجلاء العراقيين ممن دخلوا في خدمة الدولة ، ونقول : إنهم باعوا دينهم بدنياهم فما كان ابن أبي ليلى بخادم للسلطان ولا كان شبرمة ، ولكن أبا حنيفة استطاع أن يرفض القضاء والوظائف ولكن لم يكن من الممكن كذلك ألا يكون إلى جانب السلطان أحد من أهل الفقه والدين وإلا ساءت العاقبة ، وابن أبي ليلى تلميذ إبراهيم النخعي من جانب وحماد بن إسماعيل من جانب آخر ، وكلاهما من شيوخ أبي حنيفة فهو عالم جليل يجتهد على قدر ما يستطيع وهو يختلف في آرائه وفقهه عن أبي حنيفة ولكن ذلك لا يجعله حقاً خادماً للسلطان أو رجلاً من الحواشي ، حقاً إن طريقتة في استخراج الأحكام لا يمكن أن تقارن بطريقة أبي حنيفة ، فأبو حنيفة ذهن متآلق وابن أبي ليلى رجل تقليدي ينظر في الكتاب والسنة ويقيس قدر استطاعته ثم يفتى أو يقضى ، وفي المساجلات بين الرجلين يتفوق أبو حنيفة الذكي الدقيق الذهن على ابن أبي ليلى الذي لا يصاحبه التوفيق في استدلالاته وهو يخطئ كثيراً في أقيسته ، ولكنه على أي حال حمل المسؤولية وتعرض للاختبار وتعرض للنقد ، أما أبو حنيفة فقد كان بعيداً عن المسؤولية وهو يبدى اليوم رأياً في المسألة ثم يبدو له فيقول في اليوم التالي رأياً آخر دون حرج فهو صاحب رأى يفتى ، أما ابن أبي ليلى فكان قاضياً ينظر ويحكم فإذا أخطأ فله فضله على أي حال . والشافعي لا يعجبه رأى أبي حنيفة أو رأى ابن أبي ليلى وينقد الرجلين نقداً شديداً .

إننا دائماً ننسى فضل العامل الذى يتعرض للمسئولية وإصدار الأحكام واتخاذ القرارات وننسى أن أبا حنيفة والشافعى مثلاً كانا بعيدين عن المسئولية الفعلية فى حين حملها رجل مثل ابن أبى ليلى وأبى يوسف القاضى وتعرضا بسبب ذلك للنقد ، وننسى أن أهل الفقه جميعاً لو فعلوا فعل أبى حنيفة والشافعى لما وجد الناس قاضياً يجلس للحكم بينهم ؛ لأن الرأى الذى يلقى فى مجالس العلم والمناظرة لا يحل مشاكل الناس السائرة ، وكبار الفقهاء والأئمة كانوا يتعرضون لما يعتقدون أنه الفقه العالى أو النظريات الكبرى مع أن معظم مشاكل الناس صغيرة والصبر على مشاكل الناس الصغيرة هذه هو الراحة للناس وبه تسير الأمور .

وقد سألت نفسى أكثر من مرة : هل يوجد فعلاً مذهب فقهى متكامل يسمى بمذهب أبى حنيفة أو أن الذى لدينا ذهن متألق وعقل قانونى فقهى حر خفف على الناس حرفية المالكية والتزام أصحابها برأى مالك وخاصة فى الفروع ؟ وكل الفقه الحنفى ليس من صنع أبى حنيفة بل من عمل تلاميذه فالمذهب الحنفى هو مذهب أبى حنيفة وتلاميذه ، أما المذهب المالكى فمذهب مالك ومنهجه وطريقته ورأيه وربما يكون المذهب المالكى هو المذهب الفقهى الإسلامى الوحيد المتكامل ، أما البقية فأراء واتجاهات تروغ النفس بما فيها من نفاذ وذكاء ولكنها فى الحقيقة لا تقدم قاعدة فقهية كاملة ، ولو كنت قاضياً فإننى أتصور أننى أفكر بطريقة أبى حنيفة وأكتب حيثيات الحكم بطريقة الشافعى أما الحكم فى القضية فأخذه من مالك .

الإمام الشافعي: العالم المُفكّر الإنسان في أرفع صورة

في بعض ما مضى من فصول هذه الدراسة قلت: إن دول الإسلام بعد العصر الراشدي انحرفت عن الخط الإسلامي وسارت في طريقها لا تعنيها إلا مصالحها ، فوقعت القطيعة بينها وبين الأمة التي تمسكت بالمنهج الإسلامي ، ورفضت باسم علمائها وفقهائها - أن يكون شرع الله في خدمة السياسة وأصحابها وأهوائها - ولم أقصد بهذا الكلام أن « كل » دول الإسلام بعد العصر الراشدي خرجت عن المنهج أو أن « كل » خلفاء الإسلام وملوكه وسلاطينه تخلوا عن الصراط المستقيم ، فلا شك في أن الإسلام عرف دولاً فاضلة اجتهدت في التزام المنهج الإسلامي .

ومن بين الخلفاء كثيرون راقبوا الله واتقوه في أعمالهم وقدموا لأمرهم خدمات جليلة ولكن الذي أردت قوله هو أن القاعدة الأساسية عند تلك الدول كانت وضع مصلحة الدولة أو القائمين بالأمر فيها فوق صالح الجماعة والأمة بل فوق المنهج نفسه فإن الله سبحانه وتعالى حرم قتل النفس إلا بالحق ، واعتبر العدوان على النفس كبيرة الكبائر ، والخلفاء ورجال الدولة كانوا يقولون ذلك ولكنهم أحلوا لأنفسهم دم أي إنسان أو جماعة تهدد سلطانهم ودولهم ، كأن دولهم فوق الإسلام وفوق منهج الله ، وعبد الملك ابن مروان كان بلا شك من أعظم خلفاء الإسلام وقد قدم هو وابنه الوليد لهذه الأمة خيرًا عظيمًا .

وكلاهما كان حريصًا على الصلوات والعبادات ولهما في هذا المجال مآثر جليلة ولكن كليهما كان يرى في نفس الوقت أن من حقه أن يستحل دم أي إنسان يتخوف منه على ملكه ، والحجاج بن يوسف الثقفي كان دون شك رجل دولة من الطراز الأول بل كانت له عناية بالمساجد والصلوات وكان شديد الاهتمام بالقرآن والمصاحف وله في ذلك الميدان آثار جميلة لكنه يستحل - دون أن تطرف له عين - دم أي إنسان أو جماعة تهدد سلطان مولاة عبد الملك أو ابنه الوليد ، وبأمره وبأمر خليفته انتهك الجند حرمة البلد الحرام واقترفوا من الجرائم ما لم يقدم عليه الجاهليون في أسود أيامهم ، وغريب من

الأمر بعد ذلك أن الحجاج بعد أن أنزل بالبلد الحرام ما أنزل قام يصلى لله ويسجد شاكرًا .

ومن بين خلفاء بنى أمية واحد هو عمر بن عبد العزيز وضع صالح الإسلام وأمته فوق صالح البيت الأموى ، فأصبح بهذا وحده خليفة راشدًا خامسًا ، وعندما كتب إلى واليه يقول : « فارفع - قبح الله رأيك - الجزية عن أسلم ، فإن الله بعث محمدًا هاديًا لا جايبًا » أنزل بمالية الدولة ضربة قاصمة وهبطت الجبايات إلى الثلث ولكن الإسلام كسب بهذا الأمر مكاسب لا تحصى فإن ملايين المسلمين من الموالي كانوا قد يئسوا من عدل الإسلام ودولته وظنوا أنه دولة جديدة من دول الظلم بسطت سلطانها عليهم لتتمص دماءهم باسم الدين ، وانحرفت بهم الظنون في طرق ومسالك كلها مهالك وانتهز أعداء الله الفرصة فصبوا سمومهم في أذهان أولئك المساكين وكادوا يخرجونهم عن الإسلام جملة ، فما راعهم إلا وعمر بن عبد العزيز يعود بهم إلى منهج الله وسنة العدل فتبددت الشكوك وارتد الأمل والإيمان إلى قلوب تلك الملايين ، وعمر بن عبد العزيز حكم من ١٠ صفر ٩٩ إلى ٢٠ رجب ١٠١ هـ / ٢٣ سبتمبر ٧١٧ - ٨ فبراير ٧٢٠ م ، فهي سنتان وخمسة أشهر قمرية ، وحوالى سنتين وأربعة أشهر ميلادية ولكنها تعدل في تاريخ الإسلام دهرًا كاملًا ، وعندما خلفه يزيد بن عبد الملك وارتد إلى السياسة الأولى وضع صالح الدولة فوق صالح الإسلام عادت المظالم الأولى وعاد الانتكاس ولكن أمة الإسلام عرفت أن المسئولية لا تقع على الإسلام بل على عواتق الذين يزعمون أنهم رعاة أمته من رجال الدولة فازداد تمسك المسلمين بالإسلام ونفضوا أيديهم من الدولة وأصحابها جملة . وهذا هو الذى نشط علماء الأمة وفقهائها إلى العمل ، فإن الدين لله وللناس ولا ولاية على الناس إلا لله رب العالمين ومالك الدين ويوم الدين ، ورجال الدولة لا يؤتمنون على الدين أو الشرع ، وإنما الأمة هى الوصية على دينها الحفيظة عليه ، وشيوخ الأمة هم المكلفون بهذا الواجب العظيم ، وكيف يؤتمن رجال الدولة على الدين وهم يتمسكون بأقوال ينسبونها إلى رسول الله ﷺ وهى فى ذاتها إهانة للحس الدينى السليم ، وكيف يمكن أن يقبل الناس حديثًا يقول : إن الله يعز هذا الدين بالرجل الفاجر؟ كيف يمكن أن يعز الدين وهو نور وهدى ورحمة برجل فاجر خارج على الدين بطبعه وتصرفه ؟ وكيف يقبل الناس حديثًا روجه أحلاس

السلطين يقول : إن الله يَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن ! وكيف تعقل نفس مؤمنة أن السلطان وهو من البشر يكون أقوى من القرآن وهو كلام الله وقانونه وإرادته وعزيمته ؟

وإليك الخبر التالى يرويه الإمام الشافعى وهو يؤيد ما نقوله من أن الفقهاء نفضوا أيديهم من ظلمة السلطين : إن الخليفة هشام بن عبد الملك سأل عن تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فقال سليمان بن يسار : هو عبد الله بن أبى بن سلول . قال هشام (الخليفة) : كذبت إنما هو على بن أبى طالب ! قال سليمان : أمير المؤمنين أعلم بما يقول ! ثم دخل ابن شهاب الزهرى فسأله هشام ، فقال : هو عبد الله بن أبى بن سلول . قال هشام : كذبت إنما هو على بن أبى طالب ! قال الزهرى وقد ملأه الغضب : أنا كذبت؟ فوالله لو نادانى مناد من السماء إن الله أحل الكذب ما كذبت .. قال الشافعى : فما زالوا يغرون به هشاماً حتى قال له : أرحل ! فوالله ما كان لنا أن نحمل (العلم) عن مثلك .

فقال الزهرى : ولم ذاك ؟ أنا اغتصبتك لنفسى أم أنت اغتصبتنى لنفسك ، فَخَلَّ عنى .

قال الخليفة : لا ، ولكنك استدنت ألفى ألف (درهم) .

قال الزهرى : قد علمت وأبوك قبلك أنى ما استدنت هذا المال عليك ولا على أبىك ! وخرج مغاضباً .

قال الخليفة للجالسين حوله : إننا نهيج الشيخ ، ثم أمر فقضى عنه من دينه ألف ألف ، فلما أخبر بذلك ابن شهاب الزهرى قال : الحمد لله الذى هذا هو من عنده (رواه الأستاذ عبد الحليم الجندى فى كتابه الفذ عن الشافعى ص ٢١٢) .

وكان ابن شهاب الزهرى - بشهادة الليث بن سعد - يستدين ليعطى الفقراء والمساكين والعجائز والأرامل والأيتام ، ومن هنا ركب هذا الدين العظيم .

فهؤلاء الشيوخ كانوا فعلاً رجال الأمة وقادتها وحمايتها وما كان أحد ليرغم ابن شهاب الزهرى على الاستدانة لقضاء مصالح الناس ، ولكنه ألزم نفسه ذلك بوحى من ضميره وإحساسه بمسئوليته .

ويستوقف النظر أن أولئك الأئمة جميعاً كانوا أهلاً للمسئولية الكبرى التي تصدوا لحملها فقد كانوا - والأئمة الأربعة الكبار خاصة مضافاً إليهم الإمامان جعفر الصادق وزيد بن علي - كانوا جميعاً على خلق متين وإيمان راسخ لا تشوبه شائبة وصدق كامل لا يتطرق إليه شك وإخلاص لله ودينه وأمته لا يمسه ريب ، بل كانت لهم جميعاً طلعات بهية وهيئات جميلة ومظاهر في التعرف والهيئة وحسن الشارة والإشارة ما يفوق كل ما كان للملوك ، مما يؤكد لك أنهم - خلقاً وخلقاً شكلاً وموضوعاً ظاهراً وباطناً - هم رؤساء هذه الأمة من دون الملوك ، فقد كان معاوية بن أبي سفيان بطيئاً مترهلاً لا يحسن الجلوس ، وعبد الملك بن مروان كان إذا أكل غاص في الطعام بذراعيه حتى تتسخ كل ثيابه فينهضونه بعد الطعام إلى الحمام ليغسلوه ويغيروا ثيابه ، وكان سليمان بن عبد الملك أحول قميئاً تشيح عنه الجوارى حتى امتلأت نفسه حقداً على كل رجل ذى هيئة ووسام ، فأين هذه الصور من تلك الهيئات الجميلة التي زان الله بها مالك بن أنس ، وأبا حنيفة النعمان بن ثابت ، ومحمد بن إدريس الشافعى ، وأحمد بن حنبل ؟ بل كان الإمام جعفر الصادق آية في حسن الهيئة وبهاء الطلعة وحسن الشارة حتى كانت العيون تتعلق به أول ما تراه . في حين كان أبو العباس السفاح شائه الهيئة أشعث اللحية لا يحسن أن يقيم عمامته حتى كانت أغلب الوقت ساقطة تحيط بعنقه .

وقد تعاصر أولئك الأئمة جميعاً وجاءوا في الوقت الذى اشتدت حاجة الأمة إليهم فيه ، ففيما بين سنتي ١٠٠ - ٢٥٠ هـ كان الانحراف العظيم الذى أخرج بنى أمية ثم بنى العباس عن الجادة والمنهج ، وبين هاتين السنتين أيضاً عاش الأئمة الستة الكبار الذين ذكرناهم وعملوا ، فكأنما ابتعثهم الله بالضبط في هذه الحقبة ليمسكوا بزمام الأمة على الجادة والمنهج ويحفظوها من الانحراف الخطير ، وإليك سنوات ميلادهم ووفاتهم لترى هذه الحقيقة بنفسك :

مالك بن أنس : ٩٤ - ١٧٩ هـ / ٧١٣ - ٧٩٥ م .

أبو حنيفة حوالى : ٨٠ - ١٥٠ هـ / ٦٩٦ - ٧٦٧ م .

الشافعى : ١٥٠ - ٢٠٤ هـ / ٧٦٧ - ٨١٩ م .

أحمد بن حنبل : ١٦٤ - ٢٤١ هـ / ٧٨١ - ٨٥٥ م .

جعفر الصادق حوالى : ٨٣ - ١٤٨ هـ / ٧٠٣ - ٧٦٥ م .

زيد بن علي زين العابدين : ٨٠ - ١٢٢ هـ / ٦٩٩ - ٧٣٩ م .

مصادفة؟ لا والله وما يجرى شىء في الأرض إلا بحساب وقدر ، وقد رأينا كيف اجتهد مالك في بناء القاعدة العريضة لشريعة الإسلام على القرآن والسنة ثم شد القاعدة بما لا غنى عنه من الإجماع والقياس ، ووضع للناس تشريعاً شاملاً يعين أهل القضاء والفتوى والرأى في تعرف السبيل لحل مشاكل الناس فما كل إنسان بحافظ واعية للقرآن تعرض له النازلة فتوافيه القريحة بالآية أو الآيات التي تتضمن الحل ، وما كل الناس عارفين حديث رسول الله ﷺ كله ، وقد يكون الرجل حافظاً واعياً أى عالماً ولكنه يعجز عن استنباط الأحكام فلا يكون فقيهاً ، ولهذا فقد طار الناس بالموطأ طيراناً ووجد القضاة فيه سفينة النجاة وتغالى المالكية في ذلك حتى أصبح الرأى عندهم هو رأى مالك ، وأصحاب مالك يسمون مذهبهم مذهب الرأى ولكن الرأى هنا رأى مالك دون سواه ، فإذا لم يكن هناك رأى صريح لمالك فلا يمكن أن يخرج الرأى عما يقول به أحد تلاميذه : عبد الرحمن بن القاسم ، أو أشهب بن عبد العزيز ، أو عبد الله بن وهب ، أو عبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون ، أو يحيى بن يحيى الليثى ، ومن في طبقتهم بل إن صغار القضاة انصرفوا عن الأصول وقصروا همهم على الفروع أى الأحكام الجزئية « الجاهزة » حتى ضج الكثيرون من هذا التمسك الحرفى الضيق برأى مالك وأصحابه .

وهذا هو ما جعل أبا حنيفة يسلك في تفكيره الفقهي مسلكاً آخر يقوم أساساً على القرآن والسنة ولكنه يدقق في السنة فلا يقبل من الأحاديث إلا ما ثبتت صحته متناً وسنناً وأوسع أبو حنيفة المجال للرأى ، ومالك بن أنس اعتمد على سوابق وشواهد من فقه عمر بن الخطاب وأجلاء الصحابة فأجاز الحكم بما فيه صالح المسلمين إذا لم يكن في ذلك تعارض مع أمر من أوامر الله أو نهى من نواهيه وسموا ذلك الاستصلاح أى الحكم بما فيه المصلحة العامة للمسلمين ، وتوسع أبو حنيفة وتلاميذه في الاستصلاح حتى خيف أن تطفئ هذه المصالح العامة أو المرسلة على نصوص القرآن والسنة ، ودخل في الفقه مبدأ الاستحسان أى للقاضى أو ولى الأمر إذا لم يجد نصاً صريحاً أن يحكم بما يستحسنه أى بما يراه حسناً للناس ، وهذا بدوره فتح باباً من البلاء لا يسد فالاستحسان حكم بالهوى والمزاج . قال الشافعى : « أفرأيت إذا قال الحاكم والمفتى في النازلة ليس فيها خبر ولا قياس « استحسنت كذا » فلا بد أن يحكم أن جائزاً لغيره أن

يستحسن خلافه فيقول كل حاكم في بلد ومفت بما يستحسن فيقال في الشيء الواحد بضروب من الفتيا ، ثم يقول في الرسالة « لا يجوز لأحد أن يقول بالاستحسان جاز لأهل العقول من غير أهل العلم أن يقولوا بما ليس فيه خبر بما يحضرهم من الاستحسان ، والاستحسان تلذذ » فإذا تركت للناس حرية الحكم على أساس مراعاة المصلحة العامة والاستحسان أصبحت الأحكام تجرى على الهوى ، وأبو حنيفة أقر الحكم على قاعدة أن الضرورات تبيح المحظورات وأحسن هو تطبيق هذه القاعدة ، ف جاء بعض تلاميذه فأباحوا للحكام تخطى الحدود والعدوان على الأنفس والأموال والضرورات تبيح المحظورات ، والأترك العثمانيون مثلاً أخذوا بمذهب أبى حنيفة وقال لهم شيوخهم : إن في القرآن آية تقول إن الفتنة أشد من القتل فأباحوا لأنفسهم قتل إخوتهم وكل من يخشون منافستهم على العرش تحاشياً للفتنة وصار السلطان منهم إذا تولى قتل العشيرت من إخوته وبنى عمومته تحاشياً للفتنة وزعموا أن آية الفتنة أشد من القتل تبيح لهم ذلك ، وغاب عنهم أن مقصد الآية ١٩١ من سورة البقرة بعيد جداً عما زعموا ولكي نفهمها ونحسن تطبيقها لا بد أن نقرأها كاملة ونعرف أسباب تنزيلها فهي تقول : ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقَّفْتُمُوهُمْ وَأُخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُم وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُم فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَكُم فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة / ٢ / ١٩١ — ١٩٣) فالآيات كلها تدور حول قتال الكفار فأين ذلك من قتل المسلمين ممن تخشى منافستهم وسفك دم الأبرياء دون جريمة ؟

لا بد إذن من ضوابط وروابط لكل شيء في التشريع ، لا بد من قواعد محكمة لتفسير القرآن الكريم ، والاستناد لآياته واستخراج الأحكام منها لا بد لذلك من علم واسع بالقرآن الكريم ومعاني ألفاظه وآياته وأسباب تنزيله ولا بد كذلك من قواعد وضوابط لقبول الأحاديث النبوية والاستدلال بها والاعتماد عليها في تفسير القرآن أو استخراج الأحكام ولا بد كذلك من تحديد معنى الإجماع .

وهل إجماع أهل المدينة يجزى عن إجماع غيرهم كما يقول مالك ؟ والقياس هل هو عملية قياس بسيطة نأخذ حكمنا على حالة سابقة ونطبقه على حالة لاحقة مشابهة أو نتصور أنها مشابهة ؟

كل هذا كان لا بد من ضبطه ووضعه على أصول لا يتعداها أحد ، فإن التشريع السليم أساس العمران وتشريع الله سبحانه خير تشريع فهو سبحانه الذى خلق كل شىء فأحسن خلقه وأحكمه ، ولا يستطيع أى إنسان أن يطبق أحكام الله سبحانه جزافاً أو تأويلها على الهوى فلا بد من قواعد وضوابط لهذا التطبيق وإلا أصبحت الأحكام فوضى ، باختصار لا بد من وضع الأصول المحكمة لكل ما يتصل بالأحكام والقضاء ولا بد أن تكون هذه الأصول علماً محدد القواعد واضح الأركان .

وهذا هو الذى هيا الله له محمد بن إدريس الشافعى وعندما نقرأ تاريخ هذا الرجل نحس فعلاً أنه لم يكن منذ البداية مجرد طالب علم دخل الميدان وظهرت له فيه مواهب وملكات جعلته يسير سيراً عادياً ومنطقياً حتى يصل إلى القمة كما هى الحال مثلاً مع أئمة عظماء مثل محمد بن الحسن الشيبانى أو يوسف بن يحيى البويطى (ت ٢٣٢ هـ) أو أبى إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزنى (ت ٢٦٤ هـ) أو يونس بن عبد الأعلى المصرى (ت ٢٦٤ هـ) ممن طلبوا الفقه وساروا في طريق العلم ووصلوا إلى الصدارة بالعلم والعمل ، ولكن حياة الشافعى تبدوا لنا وكأنها تمهيد وإعداد للعمل العظيم الذى ندب له نفسه فنجده من بدايات سنوات درسه يكون نفسه تكويناً يخالف ما عرفناه في تكوين الشيوخ فهو يدرس القرآن والحديث ثم يتجه إلى دراسة اللغة والبلاغة والشعر والفروسية والرماية ، ويدرس الرياضيات والعلوم كأنه يضبط فكره ومنطقه أو كأنه يعد نفسه لشىء آخر إلى جانب الفقه أو لطرارز آخر جديد من الفكر الفقهى ، كل هذه الدراسات والتدريبات ستفعله فيما بعد عندما يشرع في التأليف في علم الأصول .

والشافعى قرشى يرجع نسبه إلى المطلب بن عبد مناف والمطلب أخو هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ وكان بنو المطلب أقرب قرىش إلى بنى هاشم ، وكان رسول الله ﷺ يتحدث أحياناً باسم بنى هاشم وبنى المطلب ويقول : نحن وبنو المطلب هكذا ويشبك أصابع يده ، واسمه الكامل محمد بن إدريس بن العباس بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن المطلب بن عبد مناف : وكان هو عظيم الإحساس بهذه النسبة وأهميتها ، وأنت تحس أنه كان بالغ التقدير لمسئولية هذا النسب ، فما كان يتصرف أو يتكلم إلا عن إحساس بمسئولية نسبه ، وذلك دون إدلال على الناس به ، ومع ذلك فما

عرفه الناس في تاريخ الفقه إلا بلقب عالم قریش وهو نفسه كان يقول : « لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذلَّ النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح » ، ومع هذا التواضع فإنك إذا ذهبت إلى مدفن الشافعي ومسجده في الحي المعروف باسمه في القاهرة قرأت على الباب : « عالم قریش يملأ طباق الأرض علماً » ويقال : إن هذا اقتباس من حديث نبوي نذك في صحته : « اللهم اهد قریشاً ، فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً » ، والغالب أن هذا الحديث وضع بعد موت الشافعي .

وقد ولد محمد بن إدريس الشافعي في غزة وكان أبوه إدريس قد خرج إليها مع زوجته ، وكانت امرأة من الأزدي أي يمنية ويقال إنها قرشية مثل أبيه فهي - فيما يقال - حفيذة أخت السيدة فاطمة أم الإمام علي بن أبي طالب ، والقول الأول أصح . وقد توفي بعد مولده بقليل وكان مولده في نفس السنة التي توفي فيها أبو حنيفة وهي سنة ١٥٠ للهجرة ، وبعد موت الأب خرجت الأم بابنها إلى عسقلان وكانت تسكنها جماعات من الأزدي ، ثم خافت الأم إن هي بقيت في عسقلان أن يضيع نسب ابنها القرشي ويضيع حقه في بيت مال المسلمين من سهم ذوى القربى فرحلت به - ابن عامين إلى مكة - وفي مكة نشأ محمد بن إدريس ودرس وأیفع ، وكانت أمه امرأة ذكية على قدر من العلم ولها عليه فضل ظاهر سواء في التربية أو المعونة على الدرس ، وعلى كثرة ما قرأنا عن الأمهات فلا نذكر أن أمًا عملت في سبيل ابنها ما عملته تلك السيدة الجليلة ، فقد كانت قليلة ذات اليد ومع ذلك فقد يسرت لابنها كل ما احتاجه من مال ليدرس ، وعندما وجدت فيه نجابة ورغبة في الرحلة لطلب العلم باعت من متاع بيتها وشجعت على الذهاب وظلت ترقبه بعد ذلك في صبر وثبات في حين أن بقية الأمهات لا يزلن يتمسكن بالابن ويثبطنه عن الرحلة ليظل إلى جوارهن .

وكان محمد بن إدريس في الغاية من الذكاء وسعة الذهن فقد أتم حفظ القرآن في السابعة وظل في الكُتَاب بعد ذلك يعين المعلم في تحفيظ أترابه إذا غاب ، وفي الثالثة عشرة كان يقرأ القرآن في المسجد الحرام قراءة حسنة خاشعة يجتمع الناس لسماعها ، وكان يعيش مع أمه على راتب قليل هو حظه من سهم ذى القربى ومع ذلك فقد كان دائماً حسن الهيئة نظيف الثوب ، وقد افتتن الغلام بالقرآن فداوم على قراءته ودرسه والتفهم له وشغف بحلقات الدرس فصار يلزمها وضاقته يده عن ثمن القرايطيس فصار يكتب

على قطع الفخار والخزف والعظم وعظم أكتاف الإبل والخشب ، فإذا أتاحت له الفرصة مر بالديوان فاستوهب أهل « الظهور » وهى القراطيس التى كانوا يسودون فيها ما يكتبون ثم يستغنون عنها وظهورها خالية ليأخذها ليكتب فيها . قال : حتى كانت لأمى حباب (جمع حب وهو الزير) فملأتها أكتافاً وخزفاً وكرباً (أصول سعف النخل) مملوءة حديثاً . ثم إنى خرجت من مكة فلزمت هذيلاً فى البادية أتعلم كلامها وأخذ طبعها وكانت أفصح العرب فهذا إذن غلام نابغة يدرس فى السن الباكرة القرآن والحديث ثم يخرج إلى منازل بنى هذيل ليأخذ عنهم العربية فى أصفى صورها ، والهذليون معروفون فعلاً بالفصاحة وقول الشعر ، وديوان الهذليين يعد من أجمل نماذج الشعر العربى البدوى الصافى وأجمل طبعاته وأصحها عملت فى أوروبا وقام عليها مستشرق من أواخر القرن الماضى .

وكان كبير الشيوخ فى المسجد الحرام فى تلك السنين - أى ومحمد بن إدريس دون العشرين - عبد الملك بن عبد العزيز جُريج ، وكان عالماً ثبتاً ومحدثاً صادقاً فلزمه محمد ابن إدريس وأخذ علمه كله فلما مات انتقل إلى حلقة شيخ لا يقل عنه ثقة هو مسلم بن خالد بن فروة الزنجى ، وكان يتنقل بين حلقاته وحلقة سعيد بن سالم القداح وشيوخ آخرين سيروى عنهم وينسب إليهم أحاديثه ، ولكن رجلاً لم يؤثر فيه أثر سفيان بن عيينة شيخ محدثى عصره وقد قال فيه فيما بعد : وما رأيت أحداً أحسن تفسيراً منه للحديث ، وما رأيت أحداً أكف منه عن الفتوى وما جاوز العشرين حتى أذن له الشيوخ أن يجلس للإقراء ولكنه وجد أن ذلك يقعد به عن الطلب ففضل أن يظل طالباً ، وفى أثناء ذلك تعلم الركوب والرماية ، وقبل الثانية والعشرين كان قد جمع من العلم ما لا يجمعه غيره حتى الأربعين مع فصاحة ونجابة وبلاغة وحسن مظهر وزهد فى الطعام وخوف من السمن والبدانة .

ورحل إلى المدينة المنورة ليسمع من مالك ولم يكن السماع من مالك سهلاً فإن حلقة الرجل كانت فى الغاية من الضبط والنظام ، ولكن محمد بن إدريس وصل إلى قلب مالك واستحق محبته وإعجابه وصار من أنجب تلاميذه ثم حفزته الهمة إلى السماع على شيوخ العراق فمضى إلى بغداد مع ضيق العيش والضنك وسمع من محمد بن الحسن وأبى يوسف تلميذى الشافعى ، وكان قد لقى فى المدينة نفراً من تلاميذ الإمام

جعفر الصادق وأخذ عنهم الكثير من علمه وحفظ كذلك الكثير من أقضية الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وأنت إذ تقرأ حياة الشافعي وتستبعد منها الأقاويص التي دست فيها فأنت أمام نفس عطشى إلى العلم أبداً فهو في درس وسماع وحفظ ومراجعة وتقييد عمره كله ، وهو لا يقف عند الحفظ والتقييد بل هو مفكر يبهز الإنسان بذكائه وجسن فهمه ونفاذ بصيرته إلى لباب الأمور وهو مع ذلك هادئ النفس خفيض الصوت يناقش ويجادل دون أن يغضب أو يرفع صوته وقد درجنا على أن نقول : إن أرسطو أول من وضع للناس مذهباً في المعرفة ، وأحق بنا نحن المسلمين أن نقول : إن محمد بن إدريس الشافعي أولى من أرسطو بهذا اللقب فهو يقول : إن أول ما نحرض عليه من العلم هو الحق والله سبحانه هو الحق ، فهو سبحانه بداية العلم وإذا بدأ علمك من الحق وسار مع الحق فقد أمنت العثار ، والعلم لا يصح بغير العمل وكان يقول : « اعلمو أنه إذا صح الحديث عندي ولم آخذ به فإن عقلي قد ذهب » ، وبلغ من إيمانه بالحق أن كان يقول لتلاميذه : « إذا ذكرت لكم أدلة فلم تقبلها عقولكم فلا تقبلوها ، فإن العقل مضطر إلى قبول الحق » .

ولهذا فقد كان يدعو إلى العقل وينهى عن التقليد دون فهم ؛ لأن العلم في رأيه فهم ولقد طالما قيل لنا : إن أفلاطون علم الإنسانية فن المحاوراة وأدبها ، فاسمع إذن إلى الشافعي يقول وهو بعد شاب لم يشرع في التأليف : لا يمتنع طالب العلم عن السماع لمن خالفه ؛ لأنه قد ينتبه بالاستماع لترك الغفلة ويزداد به - أي بالاستماع والإنصات - تثبيتاً فيما اعتقد من الصواب ، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والإنصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك ، ولا يكون بما يقول أغنى منه بما خالفه حتى يعرف فضل ما يصير إليه على ما يترك ، هذا مع حب للناس وبعد عن الكراهية والبغض ، فلم تؤثر عنه كلمة ذم واحدة في إمام أو فقيه أو شيخ ، وقد قال مرة « ما كلمت أحداً مرة إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان » وهذه مرتبة في الإنسانية ما أحسب أن أحداً بلغ شيئاً فوقها .

* * *

أحمد بن حنبل وصراع الدين والدولة

في سنة ١٩٥ هـ / ٨١١ م دخل الإمام الشافعي بغداد دخلته الثانية وكان الإمام أبو حنيفة قد توفي سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م مخلفاً مدرسته ومذهبه في الفقه والنظر وحل مكانه في مشيخة الفقه في بغداد أحمد بن حنبل ، وكان أحمد يعرف الشافعي وعلمه وفقهه فاستقبله حفيماً به ، وجلس إليه يتذاكر في العلم ، وكان الرجلان على مستوى عال جداً من كمال الخلق وعلو الهمة وسمو النفس ، فلم يقع بينهما إلا ما يقع بين الأصفياء من محبة وتقدير ، وكان كلا الرجلين زاهداً في الدنيا ومطامعها راغباً في العلم وما عند الله . وكان كلاهما يعتبر نفسه خادماً لأمة الإسلام وللبشر أجمعين فارتبطا من سنوات طويلة برباط المودة والعلم وصار ابن حنبل يعلم الشافعي ويتعلم منه ، ولا نعرف في تاريخ الفكر الإسلامي رجلين صفت نفساهما للدين والعلم والناس كما نجد عند الشافعي وابن حنبل ، وكان كلاهما عفيف اللسان والقلب لا يصدر عنه ما يمس أحداً أو يجرح شعوره فازداد كلاهما بالآخر علماً وورعاً وجاهاً ، وذهباً في التاريخ مذهب الصفاء القلبي الخالص الذي ينبغي أن يكون عليه كبار الأئمة ليكونوا قدوة للناس ومثالاً .

وقد قضى الشافعي في بغداد سنتين ونيافاً (١٩٥ - ١٩٧ هـ) اكتمل خلالهما عمله وبلغ خلالهما ذروة فكره ، فخلال هاتين السنتين أعاد الشافعي كتاب (الرسالة) وهي مقالة طويلة في أصول العلم والفقه ، وأحس في نهاية مقامه في بغداد أنه بحاجة إلى بلد هادئ يجد فيه جواً علمياً بعيداً عن بغداد عاصمة الخلافة وتياراتها السياسية المتدافعة فاستقر رأيه على أن يذهب إلى مصر ، فله فيها أستاذ كبير توفاه الله هو الليث ابن سعد وتلاميذ أوفياء سبقوه إليها ومضوا يلحون عليه في القدوم إليهم ، وفي نهاية ١٩٧ هـ / ٨١٣ م حمل متاعه ورحل إلى مصر واستقر في القسطنطينية ليعيد كتابة رسالته في الأصول وينشئ على أساسها كتاباً مفصلاً في الفقه وفروعه ، وقد تحقق له ما أراد ، وفيما بين سنتي ١٩٧ - ٢٠٤ هـ / ٨١٣ - ٨١٩ م وهي السنة التي توفي فيها الشافعي أتم عمله العظيم فكتب كتاب « الأم » في أصول الفقه وفروعه في نحو سبع مجلدات

ضخام خلال تلك السنوات السبع لم يكف الشافعى عن العمل والكتابة والقراءة والمراجعة والتحقيق ، وقد لازمه المرض خلال تلك المدة كلها حتى هد قواه ، وأطفأ جذوة حياته فتوفى عن أربع وخمسين سنة هجرية خلف بعدها للإسلام والفكر الإنسانى تراثاً لا يقل عما خلفه سقراط وأرسطو وأفلاطون مجتمعين ، وفى رسالة الشافعى وحدها - ونصها أقل من مائة صفحة - من مبادئ حرية الفكر واحترامه وقواعده ومناهجه كل ما تحدث به بعد ديكارت ومن تلاه من قادة الفكر الغربى ، ولكننا نحن العرب لا نتدبر ولا نحسن القراءة ولا نفكر وطوال تاريخنا رزقنا الله نعم الدنيا كلها - مادية وروحية - فلم نحسن الإفادة منها ، ولقد أكرمنا الله بالإسلام وهو النور فلم نبصر من نوره شيئاً وعشنا فى الظلام ، ورزقنا أئمة فى مناهج العلم ومباهج الفكر فتركناهم ومضينا نطلب مناهج الآخرين وفكر الآخرين ثم أتانا الله فى أيامنا هذه بثروة من وراء العقول فأبيناً إلا أن نحرقها ونحرق بلادنا بها حتى افتقرنا ومضينا نتكفف الناس وكان حالنا فى البداية والنهاية والماضى والحاضر كما قال الشاعر :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

وأنا أتيك هنا بسطور عن « رسالة » الشافعى فى الأصول أى أصول الفقه ، والفقه هو الفكر والفهم ، فهى رسالة فى الفكر ومناهجه ، والشافعى يرتفع بها إلى أعلى مستويات واضعى المناهج الفكرية والعلمية فى تاريخ البشر .

الرسالة مطبوعة فى أول كتاب « الأم » الذى قام على نشره رجل من أجلاء القانونيين فى تاريخنا هو الأستاذ أحمد بك الحسينى المحامى ، ويقول الأستاذ عبد الحليم الجندى فى كتابه عن الشافعى : إن الحسينى بك كان واحداً من أول أربعة من المحامين فى مصر هم سعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، وإبراهيم اللقانى (انظر الهامش ص ١٩٦) وقد شرحها وعلق عليها إمام من أئمة الحديث فى مصر المعاصرة هو المرحوم أحمد محمد شاكر - طيب الله ثراه - فى نحو ٧٠٠ صفحة .

ولكى يستوثق القارئ من صحة ما أقول في قيمة الرسالة ومكانها أقدم هنا أهم ما تنص عليه من المبادئ والقواعد :

١ - لقد بدأ ديكارت - واضع أساس المنهج العلمي الحديث لأهل الغرب جميعاً بالشك في كل شيء يسلم به الناس دون تفكير ، ومن الشك يصل إلى اليقين ، فهو يبدأ بالشك في وجوده نفسه ثم يقول إنه تأكد من وجوده عندما تنبه إلى أنه يفكر ، وما دام يفكر فهو موجود ، وعندما يتأكد من وجوده ينتقل إلى البحث في وجود حقائق الكون والفكر بادئاً دائماً بالشك ، ومنهجه هنا ذهنى فكرى منطقي رائع ، ولكن أروع منه منهج الشافعى ، فهو يبدأ من حقيقة لا سبيل إلى الشك فيها أبداً وهى وجود الله سبحانه وتعالى ، والله سبحانه هو الحق وهو اليقين ، فالشافعى هنا يبدأ من اليقين في الله تعالى ليصل - عن طريق الفكر والمنطق - إلى اليقين فيما سواه .

٢ - ولهذا فهو يبدأ الرسالة بقوله : فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله دليل على سبيل الهدى فيها ، أى أن كتاب الله يضم البدايات والعلامات المؤدية إلى كل الحقائق .

٣ - وبعد ذلك بقليل يذكر قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ، فالنجوم هنا حقيقة لأننا نراها بالعين ، ونحن عندما نراها بالعين فنستدل برؤيتنا إياها على أننا نحن موجودون ، وهذا هو المعنى الذى أرادته ديكارت عندما قال : أنا أفكر فأنا موجود ، والشافعى يقول « أنا أرى وأعقل فأنا موجود » .

٤ - وما دامت النجوم تهديك إلى الطريق في ظلمات البر والبحر فهى أيضاً تهديك إلى خالقها ، ومادامت هذه النجوم والكواكب جميعاً تتحرك في نظام واحد محكم لا يتعارض شيء فيه مع شيء فلا بد أن يكون محركها واحداً ، وما دام هو يحركها فهو قادر على تحريكها بهذا النظام المحكم ، وما دام هو الذى يحركها كلها بهذا النظام المحكم فهو خالقها إذ لا يعقل أن تكون هناك قوة هى التى خلقتها هذا الخلق المحكم ، وقوة أخرى هى التى تحركها تلك الحركة المحكمة التى تتفق تماماً مع طبيعتها .

فانظر . والله إلى منطق الشافعى في مطلع الرسالة وقل لى : هل يصدر هذا إلا عن فكر منير علمى منهجى يصل إلى الحقائق عن طريق الفكر المستقل ويرفض الوصول إليها عن طريق السماع أو التقليد ؟

٥- وما دمت قد سلمنا بأن الله هو الخالق والمحرك والمدبر ، فمن الطبيعي أن يكون هو الهادى والمعلم والمرشد إلى الطريق المحكم ، فكما أنه يحرك النجوم - وهى جمادات - بإحكام فهو يحركنا أيضاً بإحكام ، وهو عندما يقول لنا : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة / ٥ / ٣) فلا بد أن يكون هذا حقاً .

٦ - وما دمت قد سلمت بأن الإسلام حق وأنه من الله فانت تسلم بأن محمداً رسول الله ﷺ الصادق ؛ لأنه هو الذى نقل إلينا كلام الله الموحى إليه ، وما دمت قد سلمت بهذا فانت تسلم بالقرآن وبأن كل ما فيه حق وهدى ونور ، وإن فى كل ما فى القرآن علماً ، وكل ما قاله رسول الله ﷺ علماً ، ويكون القرآن والسنة هما العلم وقاعدة العلم .

وهذا هو منهج الشافعى فى الاستدلال ، فقل لى : إن لم يكن هذا أفضل وأوضح من قول ديكارت : أنا أفكر فأنا موجود ، ومن قول سقراط : اعرف نفسك .

٧ - ويستطرد الشافعى بهذا المنطق الرياضى المحكم فى بيان أحكام الله فى القرآن وما هو عام منها يصدق على كل شىء ، وما هو خاص ينطبق على شىء بعينه دون غيره ، فمثال العام قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (الحجرات / ١٣ / ٤٩) ، فهذا ينطبق على الخلق أجمعين أما قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ (المائدة / ٥ / ٩٥) ، فهذا خاص ينطبق على الحرم والمحرمين دون سواهم .

٨ - ويمضى الشافعى فى شرح منهج القرآن فى التبيان والهدى خطوة خطوة ، فهو لا يهجم على قضية إلا إذا استقرت فى ذهنك سابقتها التى يبنى عليها .

ثم ينتقل إلى وظيفة السنة فيبين لك حكمتها ووظيفتها فيقول : قال الله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ﴾ (المائدة / ٥٥ / ٢٨) ، وسن رسول الله ﷺ لا قطع فى ثمر ولا كثر (شىء فى النخل) وألا يقطع إلا من بلغت سرقة ربع دينار فصاعداً ، فمن سرق لياكل ومن سرق ليسد جوعه فلا قطع فيه ، وإنما القطع على من عدا على مال الناس طمعاً فيه ، وعلى هذا الأساس أوقف

عمر رضى الله عنه حد القطع في عام الرمادة ، وهو عام المجاعة ؛ لان الدين رحمة وإنسانية وإصلاح ، وحدوده ليست انتقاماً .

وعلى هذا المنهج العقل المنطقي يسير الشافعى في بيانه للأصول ، أصول الدين وأصول الفقه والتشريع ، وكل الحجج عنده تقوم على قاعدة واحدة هي المنطق أى الفهم أى الوصول إلى الحقيقة عن طريق التفكير السليم الحر الذى ينتهى إلى الفهم وهو الاقتناع ، فإذا لم يقتنع عقلك بالدين ويسترح إليه قلبك ؛ فلا حاجة بالإسلام إليك ولا سبيل له عليك ؛ لأنك ضال لا ترى الحق ولن تراه حتى يأذن الله لك في ذلك .

وكل ما في الرسالة بعد ذلك متعلق بالشرعية والفقه ، ولهذا فإننى أدعه ؛ لأنه يعنى أهل الفقه خاصة ، ولكنه يريدك كيف أن هذا الرجل العظيم محمد بن إدريس الشافعى يقف في طليعة أهل العلم والفكر والمنطق في تاريخ الفكر الإنسانى كله .

وفي مصر وجد الشافعى بلدًا فيه تقاليد علم وتعليم وقضاء وقانون من آلاف السنين ، وقد سبقه إلى دراسة الفقه وتدريسه فيها إمام من أهل مصر هو الليث بن سعد (٩٣ - ١٧٥ هـ / ٧١١ - ٧٩١ م) ، وهو مصرى من قلقشندة من أعمال القليوبية ، وكان فقيهاً عاقلاً منطقياً وضع لأهل مصر مذهباً في الفقه ولكن أهل مصر فضلوا عليه مذهب مالك ، فجاء الشافعى فرد على الليث بن سعد حقه ودرس فقهه .

وكان قد عرفه من قبل في اليمن على يد يحيى بن حسان وقال فيه : العلم يدور على ثلاثة : مالك والليث بن سعد وسفيان بن عيينة ، وقد ألزم الشافعى نفسه في مصر بالعمل المستمر فكان يقضى الليل في العبادة والتأليف والنهار في الدرس والتدريس .

وقد تأثر الشافعى بتقاليد مصر في العلم فقد جرت تقاليد العلم في الحجاز والعراق بأن يجلس الشيخ ويلقى الدرس من بدايته إلى نهايته ، وهم يكتبون عنه وتكون الأسئلة والمناقشة بعد الدرس . أما المصريون فكانت طريقتهم أن يبدأ الأستاذ فيلقى مدخلاً للموضوع الذى سيدرسه ثم تبدأ المناقشة بين الشيخ والتلاميذ ويكون هذا هو الدرس ويكون العلم في هذه الحالة تبادل رأى بين الأستاذ والطلبة ، ويصبح الأستاذ طالباً والطالب أستاذاً حيناً بعد حين ، وقد استراح الشافعى إلى هذه الطريقة وسار عليها .

وفي مسجد عمرو - أو تاج الجوامع كما كان يسمى - كان الشافعى يجلس للدرس

فببدا النهار ، يدرس القرآن ، ثم يكون الالرس الثاني فى الالالء ، ثم تكون بعء صلاة الظهر مناقشة عامة فى القرآن والسنة ، وبعء الظهر تكون ءروس العربية من لغة ونثر ونظم وعروض ونحو إلى صلاة العصر ، ثم يعوء الشيخ إلى ءاره لىستجمع ذهنه وىجمع آراءه وىجلس للالالء قبل المغرب وبعءها إلى صلاة العشاء وما بعءها إلى الفجر ، وفى الصباى يعطى أوراؤه للالمة الرببع بن سلیمان المرالى لىراجعها وىضبها قبل أن تقرأ على الالامىء .

وهذا والله صمىم الالعم الالامى وهو عنءنا من ألف سنة ومائتن ثم نقول الالوم إننا نالعلم العلم ومناهجه من أهل الغرب .

ومن هذا الالهد كله أخرج الشافعى بكتاب « الأم » أى أم العلم والفقه وأصلهما وهو كتاب الالام مفصل ببءا بالعباءاء ثم يفصل أمر البىوع (القانون المءنى والالارى) ثم ىتكلم عن الزواى والالاق والموارىء والوصاىا (الأوال الشالصىة) ثم ىتكلم عن الالناىاء والءىاء والالوء والقصاص (قانون الالناىاء) إلى آخر فصوله الكالرة الالى تشمل القانون كله .

وبهذا ىكون الشافعى قء جمع ببىن الأصول والفروع ، والشافعى فى كتاباته ىناقش مالكا ومأمء بن الالسن ، وىعرض لما كان من الاللاف فى الرأى ببىن على بن أبى طالب وابن مسعود ، وهو فى ذلك كله فى الالفاة من الالء وعفة اللسان واولقر الأئمة وابلالاب ما ىجرى الشعور ، فهو لا ىقول قط : كذب فلان أو أخطأ فلان ، بل ىقول : الالنبه الصءق أو فاته الصواب أو كان أولى به أن ىقول وما إلى ذلك ، وكل ذلك ىكآبه الشافعى فى أسلوب عربى رصىن بلىغ ، وهو ىسأشهد فى كلامه بالشعر ومأثور الالكمة فهو إءن إمام فى العربية وإمام فى الفقه وقءوة فى الاللق .

* * *

وكل ذلك والالمرل مرىض فقبل أن ىفء على مصر أصابته علة البواسىر من طول الالوس للالرس والالالء ، واشأءء علىه بمصر آلى كان أآىانا ىجلس القرفصاء لىالالاب الألم ، ثم اشأء به المرىض فكان ىنزف آلى لىسىل الالدم من ملبسه وعلى رالالته ، وفى آخرىاء أىامه اشأءء به علة الالصلب شراىبن القءم آلى صعبء علىه

الحركة ، ومع ذلك فما كان يشكو بل يصبر ويتعازم ويمضى في العمل فإذا زاد كربه بما كان يعانيه قال :

فلما قسا قلبي وضافت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلماً
تعاطمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظماً
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرماً

وصعدت روحه إلى بارئها عند صلاة العشاء ليلة الجمعة ٢٩ رجب ٢٠٤ هـ / ١٨ يناير ٨٢٠ م ودفن بالقرافة بسفح المقطم بمقبرة القرشيين بين قبور أسرة من أسر أهل العلم هم بنو عبد الحكم وستحدث عنهم ، وخلال عمره القصير - نحو ٥٤ سنة هجرية وضع الشافعي قواعد علم الأصول وخلف للأمة مذهباً كاملاً من مذاهب الفقه وقانوناً عاماً شاملاً .

وبمالك وأبي حنيفة والشافعي تمت أعظم الأعمال في ميدان الفقه القائم على العلم والعمل والفكر والنظر لما فيه صالح الناس في الدين والدنيا .

وبهؤلاء الثلاثة وآخرين كثيرين ذكرنا أقلهم وضاق المقام عن أكثرهم واستقامت القاعدة السليمة للأمة على يد رؤسائها الحقيقيين وهم الفقهاء وأهل العلم وبقي تثبيت هذه القاعدة وصيانتها من عبث الدولة وعدوانها ، وتلك هي المهمة التي ادخرها الله سبحانه لرابع الأئمة الكبار وهو أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ، وهو عربي من بني شيبان من بكر بن وائل من بني معد بن عدنان .

عاش كبار الأئمة والفقهاء على ما ذكرنا بين سنتي ١٥٠ - ٢٥٠ هجرية ، خلال هذه الفترة بنت الأمة قاعدتها وأمنت حياتها ومستقبلها ، فماذا فعلت الدولة !؟

ونحن في هذه الدراسة لا نجبن ولا نجامل ولا نتستر ولا نخدع فلا يصلح في النهاية إلا الحق ، والحقيقة المرة خير من النفاق الحلو ، فالحاكم الذي يقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق حاكم مجرم لا يشفع له حب العلم أو منادمة العلماء أو الإغداق على الشعراء أو إنشاء ما يسمى بدار الحكمة أو بناء مسجد ، والحاكم الذي يعتدى على أموال الناس ظلماً وعدواناً لص أو قاطع طريق خارج على منهج الإسلام ، وإن كان -

مثل هارون الرشيد - يطلب إلى الواعظ أن يعظه ، فإذا سمع الوعظ بكى حتى تخضل أى تبتل لحيته ، فالذى يهمننا في هذه الدراسة هو الحق والفكر واحترام حقوق الإنسان كما حددها الإسلام وبينها فقيه إنسان مثل أحمد بن حنبل وهى حفظ الدين والنفس والنسل (النوع ويراد به هنا الأمة) والمال والعرض (كرامة الإنسان) .

ولد أحمد بن حنبل سنة ١٦٤ هـ وتوفى سنة ٢٤١ هـ (٧٨١ - ٨٥٥ م) ، أى أنه عاصر من مولده إلى وفاته من خلفاء بنى العباس محمد المهدي وموسى الهادي وهارون الرشيد ومحمد الأمين وعبد الله المأمون ومحمد المعتصم وهارون النواقي وجعفر المتوكل فهؤلاء ثمانية خلفاء ، ليس منهم واحد لم يعتد على النفس والنسل والمال والعرض ولم تقتصر أعمال العدوان هذه على الأعداء السياسيين مما قد يشفع في الجريمة أو يخفف من مسئولية مرتكبها على أنها جريمة صراع سياسى أو دفاع عن الدولة أو حماية النظام وما إلى ذلك ، بل إن جميع هؤلاء بلا استثناء أزهقوا أرواح الكثيرين من أبرياء الناس بلا جريرة ، وصادروا أموالهم دون حق وأهانوا الناس وعبثوا بهم واستهانوا بالأمة وعبثوا بكرامة الإنسان وكل هذه حقوق أقرها الإسلام هذا إلى جانب الإقدام على الخمر وارتكاب المعاصى وتضييع أموال المسلمين والقعود عن الجهاد وهو أول واجبات الإمام وليس منهم واحد لم يتتبع آل البيت بالأذى والعدوان الشنيع عليهم سواء أقاموا على الدولة أم انصرفوا عن السياسة وجرائمهم في حق آل البيت من كل نوع : القتل بالسّم أو بالسيف أو بالضرب مع الغدر واللؤم والحيلة والرشوة وإفساد الضمان ، وآل بيت الرسول هم آل كل مسلم ورحم موصولة بنا واحداً واحداً إكراماً لرسول الله ﷺ .

ولا أبعد بك فسأقتصر هنا على جريمة الرشيد الكبرى في حق البرامكة وهى جريمة قتل وعدوان صارخ على المال يبررها معظم مؤرخينا مع أن الإسلام لا يبيح العدوان على النفس والمال إلا على بينة وشهادة شهود واستبلاغ في البحث والتحقيق ، إنما اخترت هذا الحادث لأدرك على أن غالبية مؤرخينا يصورونها لنا على أنها من مفاخر الرشيد ناسين أنها - أياً كانت مبرراتها الشخصية والمالية - فهى جريمة وإجازتنا إياها جاءت نتيجة جريمة فكرية أخرى ، وهى تواطؤ المؤرخين والكتاب على « غسيل مخ » الإنسان المسلم حتى أصبح لا يحس بالجريمة إلا إذا وقعت عليه شخصياً ، وكان هو وآله ضحيتها ، أما إذا أصابت جاره أو أى مواطن آخر فهى شىء آخر .

ويكفى أن أذكر لك قبل حديث البرامكة أن الخليفة الهادي سلف الرشيد وأخاه الأكبر مات مقتولاً على يد أمه فيما قالوا وزعموا أنه كان يدبر قتل أمه بالسهم فسبقته هي بالغدور ، ثم إن يحيى بن خالد البرمكى كان أكثر احتراماً للخليفة الهادي في غيبته من وزيره العربي الربيع بن يونس وكاد يوقع به لولا شفاعته البرمكى - ومع ذلك فقد كان الربيع بن يونس من أكثر الناس سعيًا في الإيقاع بالبرامكة .

وقد تعودنا أن ننظر إلى البرامكة على أنهم أعداء العرب وما كانوا على الحقيقة كذلك ، حقيقة إنهم كانوا من أصل فارسي ولكنهم استعربوا وخدموا بنى العباس وأظهروا كفاية نادرة ، وخالد البرمكى - جد الأسرة - كان له عظيم فضل على الدولة وجاء ابنه يحيى على مثاله والرشيد هو الذى خوله أمور الدولة وأطلق يده في الأمور فأحسن القيام بها على طريقة أهل العصر ، وهى التبذير في المال وقلة الضبط في الحساب ، والمال أصلاً مال الأمة ولكنه كان يجبى بالعسف والظلم وإرهاق الرعية ، فلم يكن مالاً مباركاً والرشيد كان رجلاً عاطفياً متقلباً لا يثبت على حال ، وكان في دواخل نفسه رجلاً صالحاً ولكنه كان صاحب هوى : يستمتع للوعاظ فيبكي ويفريه الناس بالرجل فيأمر بقتله ويلاعبه مضحكه ابن مريم بحيل أطفال وكلام جهال فيضحك ، ويحيى بن خالد البرمكى كان يدير الدولة على هوى الرشيد ولكنه لم يكن لصاً ولا خائناً وأولاده الفضل وجعفر ومحمد وموسى كانوا من خيرة رجال الدولة وجعفر بن يحيى بن خالد بالذات كان أقدرهم وكان صاحب الرشيد وصفيه ولكن الحزب العربي برياسة الوزير الربيع بن يونس كان موغر الصدر على أولئك البرامكة بحجة أنهم فرس وكانت معهم زبيدة الهاشمية زوج الرشيد ، ودار الصراع بين الجانبين وانتهى في مرحلته الأولى بنصر الحزب العربي فنقل الرشيد ولاية العهد من ابنه الأكبر عبد الله المأمون بن الجارية الفارسية مراجل وأقام مكانه أخاه الأصغر محمد الأمين بن زبيدة العربية ، ولم يكن ذلك بالأمر الخطير فإن عبد الله كان يكبر أخاه بستة شهور فهما معاً من سن واحدة تقريباً والذى لا يعرفه الكثيرون أن الرشيد عندما مات وخلفه ابنه الأمين كانت سن الأمين والمأمون أيضاً إحدى وعشرين سنة هجرية أى في السن التى يكون فيها أولادنا في السنة الجامعية الأولى ، وهذا محمد الأمين المسكين توضع على اكتافه مسئولية أكبر دولة في الدنيا ، ثم نقول أنه أخطأ وهل كان يمكن أن لا يخطئ ومن حوله مؤامرات وتدبيرات وهو بعد شاب غر شديد الشوق لمتاع الشباب ووزيره الفضل

ابن الربيع بن يونس يوافيه بما تهفو إليه نفسه من الجوارى ويهيهء له مجالس الشراب .

والرشيد نفسه أحس بالعاصفة ووجد دولته تفلس شيئاً فشيئاً ، وكان لا بد أن تفلس فهو وأهل بيته يغرفون من خزانة الدولة ويلقون من النوافذ ويهمس في أذنه الفضل بن يونس أن الأموال عند البرامكة ، وأمر الرشيد بقتل جعفر بن يحيى البرمكى دون محاكمة وألقى البقية في السجون ، وصودرت الأموال فلم يوجد لجعفر غير قصره شىء ووجدوا ليحيى أبيه خمسة آلاف دينار ولأخيه الفضل أربعين ألف درهم ولمحمد ابن يحيى البرمكى ٧٠٠٠,٠٠٠ درهم أما الأخ الرابع موسى فلم يوجد له شىء وهذا كلام ابن عبدوس الجهشيارى في تاريخ الكتاب والوزراء (ص ٢٤١) إذن فأين ذهبت الأموال ؟ أنفقها بنو العباس ورجالهم ووزرائهم وخدمهم إنفاق السفية ، والدولة كانت مفلسة وعلى صخرة الإفلاس المالى تحطمت دولة بنى العباس والله سبحانه أمرنا بتدبير شئون المال ، ولكن أين من يسمع ومن يطيع ، وهارون الرشيد أصبح يخاف دخول بغداد بعد أن نقل ولاية العهد من المأمون للمأمون ففضى معظم أيامه بعيداً عنها ولهذا نقول : إنه كان يحج سنة ويغزو أخرى ، ووضعت الحرب بين الأمين والمأمون وقتل الأمين على أسوأ صورة ، أما المأمون فأقام في خراسان تاركاً بغداد يدبر أمرها عبد الله ابن طاهر بن الحسين ، وهو قاتل الأمين وكان انتصار المأمون على أخيه سنة ١٩٨ هـ ، ولكنه لم يدخل بغداد إلا سنة ٢٠٤ هـ بعد أن حاصرها سنتين ثم دخلها دخول مدينة معادية وعند دخوله وجد الإدارة فوضى فقد كانت في الديوان ٤٠٠٠ كيس رسائل من رجال الدولة لم تفتح أو تقرأ (الجهشيارى ص ٢٥٨) .

ومساكين الناس في بغداد جياع ينقضون على المخابز ودكاكين بيع الطعام وينهبونها ورجال الشرطة لا يحرسون إلا قصر الخلافة وحى الشماسية وهو حى الأغنياء ، أما بقية بغداد فقد تسلط عليها اللصوص وقطاع الطرق .

وتلك هى حال دولة الخلافة وأحمد بن حنبل وإخوانه من أهل العلم يرون هذه الحال ولا يدرون ماذا يفعلون لأن الإسلام جاء بالذات لكى يقضى على مثل هذه الدول الظالمة ويقم دولة العدل والناس ينفضون أيديهم من الدولة ويلتفون نحو أئمة الدين وهم أملمهم الوحيد ، والمأمون يرى هذا فيفيض قلبه بالغضب على أئمة الأمة الحافظين

للقرآن والسنة ويحيط به رجال الاعتزال والمتكلمون وهم سفسطائيون فقدوا احترام الناس من أمثال بشر المريسي الثرثار القليل العلم بالدين وثمامة بن أشرس الذي أثار في بغداد فتنة القول بخلق القرآن ، وكان الشافعي ينفر من الاعتزال وأهله ويحذر تلاميذه من الخوض في قضايا التوحيد وخلق القرآن وكان يقول : إلا إن الكلام لا غاية له وهو مدعاة للخروج عن الإسلام وقال المأمون مرة : أريد أن أعلن القول بخلق القرآن لولا مكان يزيد بن هارون . فيقول له جلساؤه : ومن يزيد بن هارون حتى يتقيه أمير المؤمنين ؟ ويزيد بن هارون من كبار الفقهاء .

وتتراكم السحب وتبدأ نذر المعركة فالأمة كلها تقف مع أئمتها مالك والشافعي وأبي حنيفة ولواء الإمامة معقود اليوم بأحمد بن حنبل إذن فلا بد من إذلاله وعقابه ليعلم الناس لمن الأمر في هذه الدولة : رجال الإيمان والقرآن والسنة أم رجال السلطان ؟ ومسألة خلق القرآن ما هي إلا تعة ، والدولة تريد أن تذل العلم والفكر ويأبى الله ورسوله وأولو العلم ذلك ، وتلك هي حقيقة فتنة القول بخلق القرآن وامتحان الناس فيها ، وسيكون بطل أهل السنة فيه إمام السنة أحمد بن حنبل وسيسجن ويضرب ويعذب ولكنه يصبر للمحنة صبر المؤمن الصامد كأنه الجبل ، وعلى صخرة الإيمان ستتحطم الدولة .

* * *